المرحوم سليم خان لما افتتح مصر اخذه سُرْكُنًا الى اسطنبول عوضًا عن والده يعقوب المستمسك بالله لكبر سنّه وذهاب بصره فلمّا توفى السلطان سليم رحمه الله عاد المتوكّل على الله هذا الى مصر وصار خليفة بها واستمرّ الى ان توفى الى رحمة الله لاثنتى عشرة ليلة مضت من شعبان سنة ٩٥٠ فى ايام المرحوم داود باشا الخادم صاحب مصر وموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية بمصر ايضًا وكان المتوكّل هذا فاضلًا اديبًا له شعر منه قوله

لم يَبْقَ من مُحْسِن يُرْجَى ولا حَسَن ولا كريم اليه مشتكى الحَزَنِ
وانّما ساد قومٌ غير ذى حَسَبٍ ما كنتُ أوثِرُ ان يمتدّ بى زمنى

ضمّن فيه قول الطُّغرائى من لامية العجم

ما كنت اوثر ان يمتدّ بى زمنى حتّى ارى دولة الأوغاد والسُّفَلِ

وقد اجتمعتُ به واخذتُ عنه فى رحلتى الى مصر لطلب العلم الشريف فى سنة ٩٤٣ وكانت مصر انذاك مشحونة بالعلماء العظام، مملوءة بالفضلاء الفخام، ميمونة بيُمْن بركات المشايخ الكرام، كانّها عَرُوس، تتهادى بين اقمار وشموس،

ثم انقضت تلك السنون واهلها فكانّها وكانّهم أَحْلَامُ

الباب السادس

فى ذكر ما عمّرته ملوك الجراكسة،

وانّما ذكرتهم لان بعضهم او اكثرهم عمّر فى المسجد الحرام، وسبق لهم فيه من الترميم والنظام، لمّا صاروا من سلاطين الاسلام، اعلم ان الجراكسة جنس من الترك فى جنوب الارض لهم مدائن عامرة ولهم جبال ومزارع يرعون الغنم ويزرعون وهم تابعون لسلطان قاعدة ملك خوارزم وملوك

هذه الطوايف لملك سراى كالرعيّة يقاتلونهم ويسبون منهم النساء والاولاد ويجلبونهم الى الاطراف فى البُلدان والاقاليم هكذا ذكر المقريزى رحمه الله فى عقوده قال واستكثر الملك المنصور قلاوون صاحب مصر من مماليك الاتراك بعد الأيّوبيّة ملوك الاكراد اصحاب مصر من شرآء المماليك الجراكسة وكذلك ولده وبنوه وادخلوهم فى الخدم الخاصّة فصاروا سلحدارية وجامدارية وجاشنكيرية وامرآء وكبّروا عمايهم وسلكوا طريق اسيادهم من ملوك الترك وداخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستقلّوا بها واستكثروا من جنسهم وعملوا لها قوانين وقواعد انتظم بها دولتهم وولى منهم ومن اولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكًا وكانت مدّة ملكهم ماية وثمان وعشرين سنة، فاوّلهم السلطان الملك الظاهر سيف الدين ابو سعيد برقوق بن آنص العثمانى الجركسى كذا ذكره المقريزى فى عقوده وخططه، قال الجمال يوسف بن تغرى بردى هو جركسىّ الاصل قام بدولة الجراكسة جَلَبَه عثمان بن مسافر ولذلك يقال له برقوق العثمانى فاشتراه الاتابك يَلْبُغَا العمرى وهو من جملة الاتراك الذين مَسّهم الرِّقّ من مماليك بنى ايّوب المتغلّبين عليهم بمصر ومات يلبغا وهو من صغار مماليكه وانّما سُمّى برقوق لجحوظ فى عينَيْه وتنقّلت به الاحوال الى ان صار امير ماية مقدم الف فكان اتابكا للملك الصالح حاجى بن الاشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون وهو الرابع والعشرون من ملوك الاتراك من مماليك الايوبية الاكراد المتغلّبين عليهم غير الجراكسة وكان سنّ الملك الصالح حاجى لمّا ولى السلطنة عشرة اعوام ليس له من السلطنة غير الاسم فألزم الامرآء الاتابك برقوق ان يخلع الملك الصالح ويتولّى السلطنة بدله

فخلعه بعد سنة ونصف سنة وذلك فى يوم الاربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة ٧٨٤ ومن آثاره مدرسة انشاها بمصر بين القصرين كان مشدّ عمارتها جركس الخليلى فقيل فى ذلك

قد انشأ الظاهر السلطان مدرسة فاقت على ارم مع سُرعة العمل
يكفى الخليلى ان جاءت لخدمته ضُمّ الجبال بها تمشى على عجل

وجهّز الى الحرم المكّى مالًا لعمارة ما تهدّم من المسجد الحرام وسار الركب الرجبى من مصر الى مكة بعد طول انقطاعه واستكثر من المماليك الجراكسة فاستمرّوا متغلّبين على ملك مصر الى ان كثر ظلمهم وزاد عَسْفهم وغَشْمهم فازالهم الله تعالى بعد ذلك بالسيوف الصارمة العثمانية وتشرّفت بدولتهم القاهرة مصر والنُّخوت اليوسفية النعمانية ملكهم الله تعالى كافّة البسيطة وجعل معدلتهم ورحمتهم عامّة بساير اهل الارض محيطة ، وكان الظاهر برقوق متمكّنًا من المملكة جمع الاموال والخزاين واكثر من شرآء المماليك الجراكسة فتمكّنوا من الملك وتلاعبت بعده المماليك الجراكسة بملك مصر وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوّة والغلبة والاستيلآء وكانت تقع فتنٌ وقتال ، وجلاد وجدال ، وقتل نفوس ، وحروب بَسوس ، وخوف وبُؤس ، الى ان استقرّ الامر على سلطنة واحد منهم فيركب فى شعار السلطنة واصطلحوا على هيئة خاصّة اخذوها من الملوك الايوبية الاكراد وزادوا فيها ونقصوا وكان ذلك الوضع مقبولًا عندهم فان العُرف يحسّن ويقبّح وان كان صورة مضحكة عند من لا يالفها ولكلّ اقليم وضع خاصٌّ وسلطان ذلك الاقليم يكون مهيبًا مهولًا فى اعين اهل ذلك الاقليم لألْفهم بتلك الهيئة لسلاطينهم ، وكان من شعار سلاطين الجراكسة عمامة كبيرة ملفوفة بصنايع مكلفة يجعلون فى

مقدّمها وبيمينها ويسارها شكل ستّة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش يلبسها السلطان فى مواكبه وديوانه ويلبس قفطانا من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين قطعة طراز مُزَرْكش بالذهب وكذلك على كتفه اليسار الا ان ذلك ليس مخصوصًا بالسلطان بل يلبس ذلك من اراد من الامرآء ومن دونهم ويخلع بهذا الثوب المطرّز على من اراد ويجعل على راس السلطان قبّة لطيفة صغيرة كالجنتر وفى وسط ذلك صورة طير صغير يظلّل السلطان بتلك القبّة والذى يجعلها على راس السلطان هو امير كبير وظيفته ان يصير سلطانًا بعد ذلك ، واكابر امرآه اربعة وعشرون اميرًا بطَبْلخانات تُضْرَب على بابهم صُبْحًا وعصرًا كلّ واحد منهم امير ماية مقدم الف بمنزلة البكلربكية عندهم يلبس كلّ واحد منهم عمامة باربعة قرون ودونهم امير عشرة مقدم ماية بمنزلة السنجق يلبس كلّ واحد منهم عمامة بقرنَيْن ودونهم الخاصكية يكون له فرس وخادم وعلى راسه زنط عليه عمامة بعَذَبَة يديرها من تحت حَنَكه ودونهم الجُلبان وهم مشاة على رؤسهم طواقى من جوخ احمر ضيّق من موضع يدخل فى راسه وسبع من اعلاه لا يلطأ براسه ، وملبوس اكثرهم الملوّطة البيضاء المصقولة يكون على كتفه طراز من مخمّل او اطلس او مزركش وفى اوساطهم شدود بيض مصقولة يشدّون بها اوساطهم ويسدلون طرفها الى انصاف سوقهم ، وكانت التجار تجلب المماليك البيض من بلاد جركس ويتغالون فى اثمانهم الى ان كثروا بمصر وبلغوا من عشرين الف فارس الى ثلاثين الفًا وكانت لهم اصطلاحات فى تربيتهم وكانت لهم اطباق يوظفون فيها المعلّمين من حفظة القرآن وكان الجَلَب يُدْخله سيّده اوّلًا الى الطبقة فيتعلّم الخطّ والاستخراج

والصلوة والقراءة بحسب قابليّته فقد يفوق فى الخطّ ومعرفة القرآن والفقه وامور دينه ، ثم يترقّى الى معرفة الثقاف والصراع ورمى السهام ثم يترقّى الى الفروسية الى ان يتفرّس فى كلّ ذلك ثم يترقّى الى الخاصكية ثم الى الامرة ثم الى الدوادارية والمقدمية ثم الى السلطنة فكانّ خيال السلطنة فى دماغ كلّ واحد منهم من حين يُجْلَب الى السوق ليُباع الى ان يموت حتى ان واحدًا من المماليك جُلِبَ وهو حقير فاحش القَرَعة فاحش العَرَج قال للدلال الذى يبيعه هل ولى الأَقْرَع الأَعْرَج سلطانًا فى مصر ، وبالجملة فقد كانوا طوايف سواديج لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه وكانت ارزاق مصر بيدهم وكانت اهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الارزاق وكانوا بيد فقهآئهم ومباشريهم وكانوا يخدعون فيرتب لهم مباشروهم المصريون مَصَارف فيكون للاجندى فقيهٌ يعلّمه القرآن وامامٌ يصلّى به ومكبّر ومباشر يكتب دَخْلَه وخَرْجه وخزندار وركابدار وجامدار ومهتار وسرّاج وسايس وحلّاق وغير ذلك فاذا ترقّى الامير للامرة ترقّى معه خدامه ويرتبون له سماطات وحَلاوى وتفكهات وكانوا فى رفاهية وكان اهل مصر يعيشون فى ظلّهم رغدًا بحيث ان اسطبلهم كانت تكفى سايس جيرانهم وكانت خدامهم تبيع ما يفضل من طعامهم للناس من الدجاج والوزّ وساير النفايس وكان لهم سوق يباع فيه ما يفضل من اطعمتهم لله اخذتها خدامهم من اسطبلهم وكانوا يتفاخرون ببناء البيوت الفاخرة والمدارس والجوامع والتُّرَب وكانت لهم خيرات جارية ومبرّات عالية الى ان فشا فيهم الظلم والعُدوان وكثرت منهم المصادرات وغلبت سيّئاتهم على حسناتهم وزادت مظالمهم على خيراتهم ومالوا الى العوانية والمفسدين ، وأَخَلّوا بشعاير الشرع والدين ،

فاستجاب الله تعالى فيهم دعاء المظلومين، ومزّقهم كلّ ممزّق ودارُ الظالم خرابٌ ولو بعد حين، والملك يدوم بالكفر ولا يدوم بالظلم والله لا يحبّ الظالمين، وان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين، وكانت مدّة سلطنتهم بمصر من سنة ٧٨٤ الى سنة ٩٢٣ وهذا كلامٌ وقع فى التنبيهين، فلنرجع الى احوال الملك الظاهر برقوق فنقول انه بعد سلطنته استمرّ على حاله سلطاناً الى ان اختلفت عليه الامراء ووقعت حروب كثيرة الى ان خُلع وحُبس فى الكرك ثم تسحّب من الحبس وجمع الجيوش وقاتل وغلب على المملكة وأُعيد الى السلطنة وصار يتتبّع اعداءه ومن خرج عليه وخالفه، ويقدّم من وافقه وحالفه، الى ان استصفاهم وما صفى له الزمان، وظنّ انه آمنٌ وابن الامان، من يد الدهر الخوّان، ومالت شمس سلطنته الى الزوال، واتمحق بدر حياته ولا بُدّ من المحاق بعد الكمال، وبَرَقَ بَرْقُ الزوال، على برقوق وشاهد الانفصال، فعهد بالسلطنة الى ولده الناصر فرج بن برقوق فطلب الخليفة والقضاة والامراء واشهد على نفسه انه نزل عن السلطنة لولده فرج وسنّه عشرة اعوام وعيّن الاتابك ايتمش البجاسى لتدبير المملكة وتوفى الى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوّال سنة ٨٠١ وفى ذلك يقول احمد ابن المقرى الشاعر

مضى الظاهر السلطان اكرم مالك الى ربّه يرقى الى الخلد فى الدرج

وقالوا سنانى شدّة بعد موته فاكذبهم ربّى وما جاء سوى فرج

وخلف الظاهر برقوق من الذهب العين الفى الف دينار واربعماية الف دينار ومن القماش والغرو والاثاث ما قيمته الف الف دينار واربعماية الف دينار ومن الخيول المسوّمة والبغال الفارهة ستّة الاف ومن

الجمال الختنية خمسة الاف جمل وكان عليق دوابه فى كلّ شهر احد عشر الف اردب شعير وفول ، وفى ايام الناصر فرج بن برقوق وقع الحريق فى المسجد الحرام فى ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة ٨٠٢ وسبب ذلك ظهور نار من رباط رامشت الملاصق لباب الحزورة من ابواب المسجد الحرام فى الجانب الغربى منه ورامشت هو الشيخ الامام ابو القاسم ابراهيم بن الحسين الفارسى وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية اصحاب المرقعات فى سنة ٦١٩ فترك بعض اصحاب الخلاوى سراجًا موقودًا فى خَلْوته وبرز عنها فسحبت الفارة الفُوَيْسقة فتيلة السراج منه الى خارجه فاحرقت ما فى الخَلْوة واشتعل اللهيب فى سقف الخلوة وخرج من شُبّاكه المشرف على الحرم الشريف فاتصل بسقف المسجد الحرام لقربه منه فما كان باسرع اشتعال سقف المسجد والتهابه وعجز الناس عن طفيه لعلوّه وعدم وصول اليد اليه فعمّ الحريق الجانب الغربى من المسجد الحرام واستمرّت النار تاكل من السقف وتسيير ولا يمكن الناس اطفاءها لعدم الوصول اليها بوجه من الوجوه الى ان وصل الحريق الى الجانب الشامى واستمرّ ياكل من سقف الجانب الشمالى الى ان انتهى الى باب العجلة وكان هناك اسطوانتان هدمهما السيل العظيم المهول الذى دخل المسجد الحرام فى اليوم الثامن من جمادى الاولى من ذلك العام يعنى عام حريق المسجد الحرام واخرب عمودَيْن من اساطين الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليهما من العقود والسقوف فكان ذلك سببًا لوقوف الحريق وعدم تجاوزه عن ذلك المكان والاّ لعمّ المسجد جميعه من الجوانب الاربعة فاقتصر الحريق الى باب العجلة وسلم الله تعالى باقى المسجد الحرام

وكم لله من لطف خفيّ يدقّ خفاه عن فهم الذكيّ

فصار ما احترق من المسجد الحرام اكواماً عظاماً تمنع من رؤية الكعبة الشريفة ومن الصلوة فى ذلك الجانب من المسجد ، قال النجم ابن فهد وتحدث اهل المعرفة بان هذا مُنْذر بحادث جليل يقع فى الناس وكان كذلك فقد وقعت المِحَنُ العظيمة بقدوم تمرلنك الى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم ونهب اموالهم واحراق مساكنهم ودورهم كما هو مذكور فى التواريخ المفصّلة ، قال الحافظ السّخاوى فى ذيله على دول الاسلام للذهبى رحمهما الله تعالى وفى اواخر شوّال سنة ٨٠٢ وقع بالحرم المكّى حريق عظيم اتى على نحو ثُلُث المسجد الحرام ولولا العمودان اللذان وقعا من السيل قبل ذلك لاحترق المسجد جميعه واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عموداً صارت كلّها كلساً ولم يتّفق فيما مضى مثله وكان وقوع السيل فى خمادى الاولى من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كافّواه القِرَب ثم هجم السيل فامتلأ المسجد حتى بلغ القناديل ودخل الكعبة من شقّ الباب فهدم من الرواق الذى يلى باب العجلة عدّة اساطين وخرب منازل كثيرة ومات فى السيل جماعة رحمهم الله انتهى ، قال التقى الفاسى رحمه الله ثم قدّر الله تعالى عمارة ذلك فى مدّة يسيرة على يد الامير بَيْسَق الظاهرى وكان قدومه الى مكة لذلك فى موسم سنة ٨٠٣ وكان هو امير الحاجّ المصرى وتخلّف بمكة بعد الحجّ لتعمير المسجد الحرام فلمّا خرج الحجّاج من مكة شرع فى تنظيف الحرم الشريف من تلك الاكوام التراب وحفر الارض وكشف عن اساس المسجد الشريف وعن اساس الاسطوانات فى الجانب الغربى من الحرم المحترم وبعض الجانب الشامى منه

الى باب العجلة فظهرت اساس الاسطوانات مثل مقاطيع الصليب تحت
كلّ اسطوانة فبناها واحكم تلك الاساسات على هيئة بيوت الشطرنج
تحت الارض وبناها الى ان رفعها الى وجه الارض على اشكال زوايا قايمة
وقطع من جبل بالشُّبَيْكة على يمين الداخل الى مكة احجار صوّان صلبة
منحوتة على شكل نصف دايرة يصير مع آخر منحوت مثله دايرة تامّة
فى سَمْك ثلثى ذراع وُضعت على قاعدة مربّعة منحوتة على محلّ التقاطع
الصليبى على وجه الاساس المرتفع على الارض ووضعت عليهما دايرة
اخرى مثل الاولى ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين
الحجرين المدوّرين وسبك على جميع ذلك بالرصاص الى ان ينتهى طوله
الى طول اساطين المسجد فيُوضع عليه حجر منحوت من المرمر هو قاعدة
ذلك العمود من فوق ويحجر له خشب مربع يوضع عليه ويُبنى من فوق
ذلك يُعْقَد الى العمود الاخر ويبنى ما بين ذلك بالاجر والجصّ الى ان
يصل الى السقف الى ان تمّ الجانب الغربى من المسجد الحرام على هذا
الحكم وبقيت القطعة لله من الجانب الشامى الى باب العجلة فاكملوها
بالقطع من عُمُد الرخام الابيض مُوَصَّلة بالصفايح من الحديد الى ان
لاقوا به العمد لله بنوها بالحجر الصوّان المنحوت لعدم القدرة على العمد
الرخام فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بعمد الرخام ثلاثة
اروقة وبالجانب الغربى وحده بالحجر الصوّان المنحوت المدوّر على شكل
عمد الرخام ، وكملت عمارة هذه العمد فى اواخر شعبان سنة ٨٠٤ ولم
يبق غير عمل السقف واخّر عمله لعدم وجود خشب يصلح لذلك
بمكة اذ لا يوجد غير خشب الدوم وخشب العرعر وليس لذلك طول
ولا قوّة ويحتاج الى خشب الساج ولا يُجْلَب الاّ من الهند او خشب

الصنوبر والسّرو ونحو ذلك ولا يجلب الا من الروم فلزم تأخّر اكماله الى احضار القدر الذى يحتاج اليه من ذلك الخشب ، وشكر الناس همّة الامير بَيْسَق على سرعة اتمام هذا المقدار من العمل فى هذه المدّة اليسيرة ومبادرته الى تنظيف المسجد الى ان يصلح للصلاة فيه وكان ذا همّة عالية وحُسن توجّه وكان كثير الصدقة والاحسان وحجّ الامير بيسق فى ذلك العام وعاد الى مصر لتجهيز ما يحتاج اليه من خشب سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام ووصل الى مصر فى اوايل سنة ٨٠٥ وكان صاحب مكة يومئذ جدّ ساداتنا اشراف مكة الآن السيّد الشريف حسن بن عجلان سقى الله تعالى عهده صوب الرحمة والرضوان وكان ممّن يحبّ الخير ويرغب فيه ويسابق الى فعل الجميل ويبادر اليه وهو الذى يقول فيه شرف الدين ابن المقرى الشافعى صاحب الارشاد والروض وعنوان الشرف وغيرها من قصيدة له يمدحه ويعرّض بصاحب اليمن يومئذ

احسنتَ فى تدبير ملكك يا حسن واجدت فى تسكين اخلاط الفتن

الى ان يقول

موسى هِزَبْر لا يُطاق نزاله فى الحرب لكن اين موسى من حسن

هذاك فى يمن وما سَلِمَت له يَمَنٌ وذا فى الشام لم يَدَع اليمن

ومن جملة خيراته وآثاره انه لمّا راى رُباط رامشت وما آل اليه بعد الحريق الى ان صار سُباطة بذلك المحلّ امر باعادته رباطًا للفقراء كما كان وصرف من ماله عليه الى ان عاد احسن من الاول وزالت السباطات من ذلك المكان وانصاف الحرم الشريف وتضاعفت ادعية الناس له بسبب ذلك والله يجزى المتصدّقين ويسمّى الآن رباط ناظر الخاصّ لانه رمّه

وعمّره بعد تهدّمه في اوايل القرن العاشر وهو من طايفة المباشريين في ديوان السلطنة بمصر في خدمة السلطان جقمق العلاءي ومن بعده وكان من اهل الخير رحمه الله ، وفي سنة ٨٠٧ قدم الى مكة الامير بَيْسَق لعمارة سقف الجانب الغربي من المسجد الحرام وغيره ممّا تشعّث من سقف المسجد الشريف من كلّ جانب فنهض الى هذه الخدمة واحضر الاخشاب المتناسبة لذلك ومجلبها من بلاد الروم وهيّاها لعمل السقف ونقشها بالالوان وزوّقها واستعان بكثير من خشب العرعر الذي يوتى به من جبال الحجاز من جهة الطايف لعدم وجود خشب الساج يومئذ بمكّة وبذل قوّته واجتهاده الى ان اسقف جميع الجانب الغربي من المسجد الحرام واكمله بخشب العرعر المذكور وعمّر معه بعض الجانب الشامي ايضا الى باب العجلة فتمّ عمارة المسجد الحرام على تلك الاسطوانات المخوتة من الحجر الصوّان وعلّق في تلك الاسقف سلاسل من نحاس وحديد لتعليق القناديل في الرواق الوسطاني من الأروقة الثلاثة على حكم سايرِ المسجد الحرام غير ان الجانب الشرقي واليماني واكثر الشامي الى باب العجلة كان في كلّ عقد من العقود التي تلي صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل احدها في وسط كلّ عقد والثاني عن يمينه والثالث عن شماله لتعليق القناديل ، واما هذا الجانب الغربي كانت فيه السلاسل على هذا الحكم فلمّا احترق هذا الجانب واُعيدت عقوده لم تركّب فيها هذه السلاسل ولا ادري هل كانت هذه السلاسل التي هي خارجة عن الاروقة تحت العقود البرّانية منها تعلّق فيها القناديل احياناً ام كانت لمجرّد الزينة ولم اطلع على ذكر قناديلها ولا كيف كانت ومتى بطلت واكمل عمارة سقف الجانب الغربي وما احترق

من الجانب الشامى الى باب الحجلة فى سنة ٨٠٧ وعمّر مع ذلك فى الجوانب
الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها كان قد انكسر
اعوادها ومال بعضها وكان يسيل منها الماء الى المسجد الشريف
فاصلح الامير بَيْبَرْس جميع ذلك بالطبطاب والنورة فى سطح الاسقف
ودلّكها وسوّاها واتقن عملها وعمّر ما فى صحن المسجد من المقامات الاربع
الله وضعت للمذاهب الاربعة على الهيئة القديمة وبذل فى صرف ذلك
الاموال العظيمة، وشكره الناس على ذلك وكان ذلك فى ايام الملك الناصر
زين الدين ابى السعادات فرج بن برقوق بن آنص الجركسى ثانى ملوك
الجراكسة وكانت سلطنته بعهد من ابيه عند وفاته كما تقدّم صبيحة
يوم الجمعة منتصف شوال سنة ٨٠١ وكان الامير الاتابك ايتمش مدبّر
مملكته وكان الامير يشبك خازندار فوقع بينهما منافرة أدّت الى
مشاجرة ثم الى مقاتلة فانكسر ايتمش فهرب الى نايب الشام الامير تنم
الظاهرى فجيّشا جيوشاً الى مصر لقتال الناصر ويشبك فخرج الناصر
لقتالهم فانهزموا منه واضطربت احوال مصر لاختلاف الكلمة، ثم وصل
تمرلنك الى بلاد الشام واخذها من سودون الظاهرى واسره وقتله ونهب
بلاد الشام واخرب ديار الدوادار وخرج الناصر فرج بجيوشه من مصر
لقتال تمرلنك فوجده قد ترك البلاد وتوجّه الى بلاد الروم فاعطى
الشام لتغرى بردى وعاد الى مصر وذلك فى سنة ٨٠٣، ثم كثرت الفتن
بمصر من الامرآء الظاهرية مماليك الظاهر برقوق واختلّت الاحوال بسبب
هذه الفتن والاختلافات الى ان ضجر فرج من ذلك وهرب من القلعة
بعد العشاء ليلة الاثنين سادس ربيع الاول سنة ٨٠٨ واختفى عند
سعد الدين ابراهيم بن غراب احد رؤساء المباشرين فاخفاه عنده

فلمّا اصبح الامرآء وفقدوا السلطان اقاموا فى السلطنة اخاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق بن آنص ثالث ملوك الجراكسة فتلاشت امور المملكة فى ايامه لصغر سنّه واختلاف امرآء دولته وكيف يستقيم الملك مع الخلاف والحال انه لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وكانت مدّة ملك المنصور شهرين وعشرة ايام فظهر الملك الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه امرآء من مماليك ابيه واخذ القلعة بالحراب من اخيه الملك المنصور عبد العزيز وتسلطن ثانيًا فى يوم الجمعة لاربع مضين من جمادى الاخرة سنة ٨٠٨ ونفى اخاه الملك المنصور عبد العزيز واخًا له اسمه ابراهيم الى الاسكندرية فتوفّيا بها فى ليلة الاثنين سابع ربيع الاخر سنة ٨٠٩ واتّهم الناصر بقتلهما والله اعلم بذلك واحكم، ثم صار الملك الناصر يتتبّع اعدآءه من الامرآء فصار يقتلهم واحدًا بعد واحد فتجمّعوا عليه وخرجوا عن طاعته وقاتلوه فهزمهم فخرجوا عنه الى الشام فتبعهم فصاروا يمكرون به ويهربون عنه ويتعبونه فى طلبهم مع غاية الاحتراز منه والحرب خداع، ومخالفة الجمّ الغفير والجمع الكبير لا تُستطاع، الى ان ملّ منه الخدم والاتباع، وتفرّقوا منه وسئموا من الاتباع، وهو يتبعهم بالجدّ فى الطّلب، الى ان صادفوه فى طلبهم بعد التعب والدّأب، وهو ومن معه اتعبوا خيولهم فى طلب العدوّ من العشاء الى الصباح، واشرفوا فى الصّبح على الامرآء العُصاة عليه وهم بطول الليل فى الراحة والارتياح، فحمل السلطان الناصر فرج ومن معه وهم نفر قليلون حقيرون، على امرآءه العاصين له وهم متوفّرون كثيرون، فمنعه اصحابه من هذه الجملة، وعلموا انه هو ومن معه فى غاية التعب والقلّة، فلم يُطعهم واطاع غروره وجهله، واغترّ بشجاعته

وحَوْله، وظنّ انه لا يقابله احد لعزّته وطَوْله، ولا يقاتله احد لهيبته وزَوْله، فدلّاه خياله الفاسد بغروره، وخاب ظنّه كما يخيب ظنّ كلّ مغرور، وخانه الزمان لجابر، ودارت عليه الدوابر، وخذله الدهر فما كان للناصر، من قوّة ولا ناصر، وانقلب اليه بصره وهو حسير، وظفر به عدوّه لحقير، وقُيّد وهو اسيرٌ كسير، وقُتل وما للناصر نصير، وما جاء الفرجُ فَرَجًا الا لبشرى الشهادة والى الله المصير، وطعنَتْه المَشاعليّة بالسكاكين، الى ان انقطع منه الوَتين، وسكن منه الأنين، فصار عبرة للناظرين، وهو مقيّد محبوس بايدى القاتلين، فى ليلة السبت منتصف شهر صفر سنة ٥١٥ والقى بعد هذه القتلة فى سباطة مَزْبلة وهو عريان عن اللباس، يمرّ به الناس، وينظرون الى ذلك البَدَن الممتهن، والجسد العارى الممتحن، وذلك من اعظم العبر واكبر المِحَن، الى ان حنّن الله عليه بعض الانام، بعد عدّة ايام، فحمله وغسّله وادرجه فى كفن ووارَاه فى التراب فى مقبرة باب الفراديس، ولعلّ الله سامحه واسكنه الفراديس، والرجا من الله الكريم ان يكون قد غفر له فان السيف مَحَا الذنوب، والله علام الغيوب،

ومن العمايل الحرمية فى ايامه تجديد عقد المروة بعد سقوطه فى سنة ١١٥ ومنها ان تاجرًا يسمّى الخواجا حسين بن احمد الشروانى اوصى فى مرض موته ان يُصْرَف على عمارة عين مكة من ماله عشرة الاف درهم وان تعمّر المبضأة الصرغتمشية بخمسة الاف درهم فنفذت وصيّته بعد ذلك فى العام المذكور، ووقع فى ايام الناصر فرج ايضًا ان سلطان بنكالة من سلاطين اقصى الهند يومئذ السلطان غياث الدين اعظم شاه بن اسكندر شاه ارسل الى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع خادمه

ياقوت الغياثى ليتصدّق بها على اهل الحرمين ويعمّر له بمكة مدرسة ورباطًا ويقف على ذلك جهاتٌ يصرف ريعها على افعال الخير كالتدريس ونحوه وكان ذلك باشارة وزيره خان جهان فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية الى مولانا السيّد حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ جدّ اشرافنا الآن، جعل الله تعالى بوجودهم الزمان، وكان وصول ياقوت الغياثى الى مولانا السيّد الشريف حسن بن عجلان رحمه الله مع هدايا جليلة اليه فقبلها وامره ان يفعل ما امره به السلطان غياث الدين لكنه اخذ ثُلُث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه ووزع الباقى على الفقهاء والفقرآء بالحرمَيْن الشريفين فعمّهم وتضاعف الدعاء له على الخير والدال عليه، واشترى ياقوت الغياثى لعمارة المدرسة والرباط دارَيْن متلاصقتين على باب أمّ هانى هدمهما وبناهما فى عامه رباطًا ومدرسة واشترى اصيلتين واربع وجبات مآء فى الركانى وجعلها وقفًا على مدرسته وجعل لها اربعة مدرّسين من اهل المذاهب الاربعة وستّين طالبًا ووقف عليهم ما ذكرناه واشترى دارًا مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسماية مثقال ذهبًا ووقفها على مصالح الرباط واخذ منه مولانا السيّد حسن بن عجلان فى الدارَيْن اللتين بناهما رباطًا ومدرسة والاصيلتين والاربع الوجبات من قرار عين الركانى اثنى عشر الف مثقال ذهبًا واخذ منه مَبْلغًا لا يُعلم قدره كان جهّزه معه سلطانه لتعمير عين عرفة فذكر مولانا السيّد حسن انه يصرفه على عمارته ويقال ان قدره ثلاثون الف مثقال ذهبًا، ثم ان مولانا السيّد حسن عيّن احد قوّاده وهو الشهاب بركات المكين لتفقّد عين بازان واصلاحها واصلاح البركتَيْن بالمعلاة وكانتا معطّلتَيْن فاصلحهما الى ان جرت عين بازان فيهما، وكان خان جهان

وزير السلطان غياث الدين ارسل مع ياقوت الغياثى خادمًا له يسمّى حاجى اقبال ارسله بصدقة أُخْرَى من عنده لاهل المدينة المنوّرة وجهّز معه مالًا يبنى له به مدرسة ورباطًا وهديّة الى امير المدينة يومئذ جَمّاز الحُسَيْنى فانكسرت السفينة التى فيها هذه الاموال وغيرها بقرب جُدّة فاخذ مولانا السيّد حسن بن عجلان ربع ما خرج من البحر على عادتهم اذا انكسرت سفينة عندهم واخذ ما يتعلّق بالسيد جَمّاز الحسينى لانه عَصَى وظهرت منه شنايع بالمدينة الشريفة منها اخذ مفتاح خزانة النبى صلعم من قاضى المدينة جبرًا بعد ان اهانه وهو القاضى زين الدين ابو بكر بن الحسين المراغى وضرب شيخ الخُدّام واخذ من خزانة النبى صلعم احد عشر حوشخانه وصَنْدُوقَيْن كبيرين وصندوقًا صغيرًا كلّها مهور فيها ذهب مودع للملوك العراق وخمسة الاف كفن وصادر الخُدّام واراد اخذ قناديل الذهب من الحجرة الشريفة فنعه الله تعالى ورحمته العامّة فهرب من المدينة الشريفة واخذه الله تعالى ونهب العُربان ما جمعه ومات لا رحمه الله تعالى، فارسل مولانا السيّد حسن بن عجلان الى المدينة الشريفة عسكرًا وصلوا اليها بعد خراب البصرة وولى عليها عجلان بن نُمَيّ الحسينى وكلّ ذلك فى سنة ٨١١ ، وفى سنة ٨١٢ وقع فى اواسط رمضان اصلاح مواضع فى صدر سطح الكعبة الشريفة كان يكثر وكف المطر منها الى اسفلها، منها موضع عند الطابق الذى على الدرجة التى يصعد منها الى سطحها ومنها موضع عند الميزاب وكان الفتح الذى فى هذا الموضع متّسعًا يَصِلُ الماء منه الى الجدر الشامى من الكعبة لقربه منه وينزل الماء منه فى وسط الجدار وذلك بعد قلع اللوح الذى يستتر مجرى الماء وأُعيد

الروح كما كان ووضع بقرب بعض الروازن لله للضوء وكان اصلاح المواضع المذكورة بالجبس بعد ان قلع الرخام الذى كان هنساك وأُعيد فى موضعه وأُبدل بعضه بغيره وتصلّحت الروازن كلّها بالجبس وكانت الاخشاب المطبقة باعلا الروازن لله عليها البناء المرتفع فى سطح البيت قد تخرّبت فعوّضت بخشب سوى ذلك وأُعيد البناء الذى كان عليها كما كان الا الروزن الذى يلى باب اللعبة فان خشبه لم يغيّر وكان الروزن الذى يلى الركن الغربى قد تخرب بعض الخشب الذى فى جوفه ممّا يلى السقف والسوة لله فى جوف اللعبة وكانت السوة لله تليه قد زال تشبّكها فسُمّرت وكان الروزن الذى يلى الركن اليمانى منكسرًا فقُلع وعُوّض بروزن جديد وُجد فى اسفل اللعبة، قُلْتُ وهذه الروازن لا وجود لها الآن فانها سدّت جميعها واصلح فى الدرجة اخشاب منكسرة وكان اصلاح ذلك عقيب مطر عظيم حصل بمكة فى اوايل شهر رمضان من هذا العام،

ولمّا قُتل الناصر فَرَج بن برقوق على الوجه الذى تقدّم شرحه ما قدم احدٌ من امراء الجراكسة على التلبُّس بالسلطنة خوفًا من مخامسة العسكر وجُبْنًا ان يقدموا على قتله فاتوا الى الخليفة العبّاسى وابرموا عليه وسلطنوه بالجبر وهو المستعين بالله ابو الفضل العباس بن محمد ابن ابى بكر العباسى المصرى بعد التمنّع الشديد منه فولى السلطنة كرهًا فى المحرم سنة ٨١٥ وكان القايم بتدبير المملكة الامير شيخ المحمودى ثم خلع المستعين بالله وتسلطن مكانه وتلقّب الملك المويد شيخ ابو النصر الظاهرى فى مستهل شعبان سنة ٨١٥ وهو الرابع من ملوك الجراكسة وكان اصله من مماليك الظاهر برقوق اشتراه من تاجر يسمّى

محمود اليزدى واعتقه وجعله امير عشرة ثم صاحب طبلخانة ثم مقدّم الف ثم ولى نيابة طرابلس ثم اسره تيمورلنك لمّا اسر نوّاب البلاد الشامية ثم هرب منه ووقعت له امور مع الناصر فرج من الخروج عليه وعصيانه الى ان آل امره الى ان صار سلطاناً وعصى عليه نوّاب البلاد الشامية وتوجّه الى قتالهم مرارًا كثيرة وافتتح الشام وغيرها وعاد الى مصر وكان يعتريه أثر المفاصل فصار يُحمَل على الاكتاف ويركب المحفّة وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا وكانت اسواق ذوى الفنون نافقة عنده لجودة فهمه وذوقه وكان يحبّ العلماء والفضلاء ويُجِلّ قدرهم، وفى ايامه وقع الغلاء العظيم بمكة بحيث بُيعَت الغرارة الحنطة وهى حمل جمل معتدل بعشرين دينارًا ذهبًا وكان عامًّا فى جميع المأكولات بحيث بيعت البطيخة بدينار ذهب الى ان رفع الله عن المسلمين تلك الشدّة وكان فى سنة ٨١٥، ومن عجيب ما وقع فى ذلك ان جملاً كان لجمّال يقال له الفاروتى بحمّله فوق طاقته فى جمادى الاخرة من تلك السنة فمرّ من صاحبه ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت الشريف والناس حوله يريدون امساكه فيعضّهم ولا يمكّن احدًا من نفسه فتركوه الى ان اتمّ ثلاثة اسابيع ثم جاء الى الحجر الاسود فقبّله ثم توجّه الى مقام الحنفية ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف فنزل عنده وبكى والقى نفسه على الارض ومات فحمله الناس الى ما بين الصفا والمروة ودفنوه هناك، وفى هذه السنة عمّرت اماكن من سقف المسجد الحرام وعقدان من جانب الركن اليمانى المتّصل بصحن المسجد، وفى سنة ٨١٦ عمّر شريف مكة يومئذ وهو الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جدّ سيّدنا ومولانا شريف مكة الآن السيّد الشريف حسن بن ابى نمّى بن

بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ادام الله تعالى دولته وسعادته بالجانب الشمالى من المسجد الحرام البيمارستان الذى كان وَقْفًا للمستنصر العباسى فخُرِبَ ودُثِرَ فاستاجره من قاضى القضاة بمكة يومئذ القاضى جمال الدين ابن ظهيرة الشافعى اجارة طويلة ماية عام باربعين الف درهم بوزن مصر واذن القاضى جمال الدين السيّد حسن بن عجلان ان يصرف الاجرة المذكورة فى عمارة ما تخرب من البيمارستان المذكور وان يهدم ما يحتاج الى الهدم ويرمّم ما يحتاج الى ترميمه وان ينتفع به مُدّة اجارته فشرع السيّد حسن فى عمارة البيمارستان المذكور عمارة حسنة وجدّد فيه ما يحصل به النفع للفقراء وجدّد به ايوانًا وصهريجًا ووقف جميع ذلك ممّا عمره وممّا يستحقّ الانتفاع به على الفقراء والمساكين والمرضى والمنقطعين يأوون فيه عُلْوًا وسُفْلًا وينتفعون بالاقامة والسُّكْنى فيه لا يزعجهم احد ولا يخرجهم بل يستمرّون الى ان يحصل لهم الشفاء والعافية فيخرجون باختيارهم فاذا خلا البيمارستان عن المرضى عاد الانتفاع لهم وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة وجعل النظر على ذلك لولدَيْه بركات واحد ثم من بعدهما للارشد فالارشد من ذريته الذكور دون الاناث من ولد الظهر لا البطن ، وثبت ذلك وحكم بصحّته القاضى السيّد رضى الدين ابو حامد محمد بن عبد الرحمن الفاسى الحسنى المالكى فى يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة ٨١٦ وانما استحكم فيه المالكى لان متاخّريهم اجازوا وقف المنافع وهو خلاف راى ابى حنيفة والشافعى واستمرّ الى ان خُرِب ودُثِر فاستبدل مرارًا آخِرُ ذلك فى اواخر دولة المرحوم المقدّس السلطان سليمان خان بن سليم خان سقى الله عهده صَوْب الرحمة

والرضوان واستبدل الى جانبه رباط سلطان الهند السلطان احمد شاه اللاجوانى ورباط الخواجا الطاهر ، واشتريت دور أخرى وعمّر فى مكانهما المدارس الاربع السليمانية لاهل المذاهب الاربعة وبيد مؤلّفه مدرسة الحنفية منها جزى الله خيراً من كان سبباً فى انشائها وسيأتى بيان عمارتهما ان شاء الله تعالى ، وفى مستهل ذى الحجّة سنة ٨١٦ قدم الى الحجّ احد خواصّ مماليك السلطان الملك المؤيّد شيخ فراى جانب باب الكعبة الايمن محتاجاً الى الحلية فاخرج من ماله مقدار ما يقارب مايتى درهم فضّة خالصة فجلّاه به ثم طلاه بالذهب وفرغ من عمل ذلك قبل الصعود الى عرفة وشكر النّاس صنيعه وعرفوا تعظيمه لبيت الله تعالى واثنوا على همّته والخير يُذكَر ولو بعد حين ، وفى اواخر سنة ٨١٨ ارسل المويد منبراً حسناً الى المسجد الحرام ودرجة يصعد عليها الى الكعبة ووصل ذلك الى مكة فى الموسم وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية فى سابع ذى الحجّة وارسل المويد ايضاً صدقة كثيرة لتفرّق بالمسجد الحرام فتولّى بفرقتها الامير تغرى برمش باش النّوك المقيمين بمكة ، وفى سنة ٧٢٢ لسبع مضين من شهر ربيع الاول هُدمت ظُلّة المؤذّنين لله فوق زمزم لخراب خشبها وتآكله وبُنيت بالحجر المحوت ووُسعت احواض زمزم واتقن عملها وفرغ منه فى شهر رجب من هذه السنة ، وفيها عمّرت قناة عين بازان لان السيل كان قد اخربها فانقطع ماء العين فجدّدت الى ان جرى الماء وامتلات البرك لله فى المعلاة ورخص الماء بعد غُلوّه ، وكانت وفاة الملك المويّد شيخ المحمودى فى يوم الاثنين لتسع خلون من المحرم سنة ٨٢٤ وقد اناف على الخمسين وكانت مدّة سلطنته ثمان سنين وخمسة اشهر وتسلطن بعده ولده الملك

المظفر ابو السعادات احمد بن المويّد شيخ المحمودي الظاهري بعهد منه في يوم الاثنين تاسع المحرم يوم وفاة والده وعمره اذذاك سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو الخامس من ملوك الجراكسة وصار مدبّر مملكته الامير طَطَر امير مجلس اتابك العساكر وخالف عليه امرآء الشام فتجهّز عليهم ططر ومعه الملك المظفّر احمد طفلاً وقاتلهم وقتل كثيراً منهم الى ان صفى له الوقت فخلع الملك المظفر وتسلطن عوضه في يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة ٨٢٤ ورجع بالمظفر احمد بن المويد الى مصر واستمرّ بالقلعة الى ان نقل الى الاسكندرية فتوفي بها مطعوناً في سنة ٨٣٣ وكانت مدّة سلطنته سبعة اشهر وعشرين يوماً ونتقّلت جنازته من الاسكندرية الى مصر ودُفن بالجامع المويّدي داخل باب زُوَيْلة ٭

وتسلطن الملك الظاهر ابو الفتح سيف الدين ططر الظاهري في يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة ٨٢٤ وهو السادس من ملوك الجراكسة واولادهم بمصر وكان من مماليك الظاهر برقوق اعتقه وقدّمه ولا زال يترقّى الى ان صار عند المويّد راس نوبة النوب ثم امير مجلس ثم تسلطن كما ذكر وتلقّب بالظاهر لقب استاده ٭ ومهّد مملكة الشام وقتل نايبها وقبض على الامرآء المخالفين وقدّمهم للحالفين ٭ وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من اعظمها انه قرّر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان الف دينار ذهب تحمل اليه من خزنته بمصر في كلّ عام وجعل ذلك له في مقابلة ترك المكس على الخضرة والفواكه والحبوب وغيرها بمكة وامر ان يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد الحرام من ناحية باب السلام وناحية باب الصفا باسقاط المكس الذي كان يوخذ على الخضر والفواكه وغيرها من المأكولات وان لا

يكلّف شريف مكة التجار على اخذ القرض منهم والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة في المسجد الحرام الى الآن ، ثم لما سخّر الله للملك الظاهر ططر ملكة الشام وحلب عاد الى مصر فرض في اثناء الطريق وصار يتعلّل الى مصر وجعل فيها مواكب ولزم الفراش ولم يتهنّ بالسلطنة وما كمل فرحه بالملك، وما امهله الدهر بل سلبه الملك واسلمه الى الهلك، وتوفي يوم الاحد لاربع مضين من ذي الحجّة سنة ٨٢٤ وكانت مدّة ملكه اربعة وتسعين يومًا وتوفّي بعده من يومه مونه ولده الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر وعمره نحو العشر سنوات وهو السابع من ملوك الجراكسة وصار اتابكه ومدبّر مملكته الاتابك جاني بك الصوفي الى ان تغلّب عليه الاتابك برسباي الدقماقي فقبض عليه وارسله الى سجن الاسكندرية وصار اتابكاً في مكانه واستبدّ بامور الملك من غير مشارك فخلع الملك الصالح وتسلطن برسباي عوضه في يوم الاربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاخر سنة ٨٢٥ وكانت مدّة سلطنة الملك الصالح ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً واستمرّ بعد الخلع عند والدته في القلعة الى ان توفي بالطاعون في سنة ٨٣٣ وعمره نحو العشرين عامًا، وتوفّي برسباي السلطنة وتلقّب بالملك الاشرف سيف الدين ابي النصر برسباي الدقماقي وهو الثامن من ملوك الجراكسة بمصر أُخِذَ من بلاد جركس وبُيع في بلاد قرمر فاشتراه تاجر وجلبه الى الشام وباعه فاشتراه الامير دقماق الظاهري نايب ملطية وقدّمه الى الظاهر برقوق فقرّبه واعتقه فصار يترقّى الى ان ولاه الملك المويد مقدّم الف وجرت عليه نكبات وحبوس الى ان ولي الظاهر ططر فقرّبه وانعم عليه بتقدمة الف ثم جعله دواداراً واستمرّ على ذلك الى

ان تسلطن على الوجه الذى قدمناه واستمرّ فى السلطنة مدة طالت وحسنت ايامه ومن جملة مناقبه انه اخذ بلاد قبرس واسر ملكها فى سنة ٨٢٩ وهو فى تخت مُلكه بمصر لم يتحرّك وكان عاقلاً مدبّراً سيوسًا ذا وقار وسكينة متجمّلاً فى ملبسه ومركبه محبًّا لجمع المال واشترى من ماله ثلاثة الاف مملوك جركسىّ وعمّر بالقاهرة المدرسة الاشرفيـــة وهى من احسن مدارس مصر ووقف عليها اوقافًا كثيرة وعمّر ايضًا جامعًا عظيمًا بخانقاه سرياقوس ووقف عليه ايضًا اوقافًا كثيرة ، وفى اول سنى سلطنته ارسل الامير مقبل القديدى وامره بعمارة اماكن متعدّدة بالمسجد الحرام كان قد استولى عليها الخراب فاحسن بناءها وجدّد كثيرًا من اسقف المسجد الحرام كان قد تاكّلت اخشابها وكذلك جدّد سطح الكعبة الشريفة وكانت الاخشاب التى تُربط فيها كسوة الكعبة الشريفة قد تاكّلت وذابت فقلعها ووضع عوضها اخشابًا جديدة مُحْكمة بمسامير كبار من الحديد واحكم كلّ ذلك غاية الاحكام واتقنه غاية الاتقان ، وفى سنة ٨٢٩ امر الاشرف برسباى اميرًا له بمكة يقال له مقبل القديدى الاشرفى بقلع الرخام المفروش فى باطن الكعبة وجدرانهـا من داخل للخرّبه وتقلّعه وان تجدّده برخام جديد وان يُعيد ما كان صحيحًا غير منكسر وكذلك يصلح الاساطين التى فى جوف الكعبة الشريفة ويحكّمها ، وذكر شيخ الكعبة انه سمع صريرًا فى سقف الكعبة الشريفة فتتبّعوا ذلك فوجدوا احدى الاسطوانات التى تقابل باب البيت قـد مال راسها عن محلّها فاعادها الى محلّها واحكمهـا وعمّر ذلك عمارة حسنة وكتب اسم سلطانه الاشرف برسباى فى لوح رخام نقره ونقشه بالذهب وركبه فى صدر البيت الشريف وهو باقٍ فيه الى الآن ، وكان مشدّ

العمارة هو الامير مقبل القديدى الاشرفى والناظر عليها الخواجا علىّ
الكيلانى تاجر السلطان وحضر فى العمارة شيخ الكعبة والقضاة الاربعة
وناظر الحرم الشريف والمعمار جمال الدين يوسف المهندس وكان الفراغ
من هذه العمارة فى شهر صفر، وفى اول هذا العام عمّر الرخام الذى فى
ارض الحجْر فى باطنه وظاهره واعلاه واسفله على يد الامير مقبل المذكور،
وفيهما عمر باب الجنايز احد ابواب المسجد الحرام الواقع امام رباط
سيّدنا العبّاس رضه امام هذا الباب وانّما سمّى باب الجنايز لانه كان
مخصوصًا بدخول الجنايز منه الى المسجد الحرام للصلوة عليها فيه
وجرت عادة اهل الحرمَيْن الشريفين بادخال جنايزهم المسجد الحرام
والصلوة عليها عند باب الكعبة الشريفة وكذلك اهل المدينة يدخلون
جنايزهم المسجد الحرام ويقفون بها امام وجه النبى صلعم ويصلّون
عليها فى الروضة الشريفة وهذا مذهب الامام الشافعى والامام مالك
والامام احمد ابن حنبل رضى الله عنهم واما الحنفية فى الحرمَيْن الشريفين
فيقلّدون اولئك الائمّة ليجوزوا هذا الفضل العظيم لان مذهب الامام
الاعظم ابى حنيفة رضه عدم جواز ادخال الميّت الى المسجد، وطالما
تصفّحتُ كُتُبَ الفتاوى وتفحّصتُ عن رواية ائمّتنا بالجواز الى ان
ظفرت بعون الله تعالى برواية عن الامام ابى يوسف رضه فى جواز ذلك
وهى رواية عن ابى حنيفة رضه ففرحت بها كثيرًا كالّذى ظفرت بكنز عظيم
فلا تغفل عنها فانّها من مهمّات المسايل لا سيما لاهل الحرمَيْن الشريفين
فعضّ عليها بالنواجذ واعتمدْ على ما افتيتُ به فى هذه المسئلة فقد
ذكر علماءنا رضى الله عنهم ان كلّ قول قال به الامام ابو يوسف والامام
محمد والامام زُفر فهو رواية عن الامام ابى حنيفة رضه وحيث ثبتت

هذه الرواية عن الامام ابى حنيفة رضه فهى قول له وان كان غير ظاهر الرواية فاخذنا بها تصحيحًا لعمل جيران الله وجيران نبيه صلعم فى الحرمين الشريفين من صدر الاسلام الى هذا العصر ولا نقول بتأثيم من سلف مع وجود المساغ الصحيح وهو رواية عن المجتهد الذى نقلده رضى الله عنه، وقد رُفع الىّ سؤال فى ذلك صورته ما قولكم فى مسئلة الصلوة على الميت فى المسجد الحرام المكى ومسجد النبى صلعم فى الروضة الشريفة هل يجوز للحنفىّ ادخال الميت البهما والصلوة عليه فيهما كما هو عمل اهل الحرمين قديمًا وحديثًا وهو شانُ السلف الصالح الى الآن ام لا يجوز ذلك لان الصحيح من مذهب ابى حنيفة رضه كراهة الصلوة على الميت فى المسجد وعلى هذا فهل يأثم فاعل ذلك وهل تُؤثمون السلف الصالح على ادخال موتاهم الى مقابلة وجه النبىّ صلعم طلبًا لبركته ومرحمته ثم ادخاله الى الروضة الشريفة التى هى بنصّ الحديث الشريف روضة من رياض الجنّة فيحرم الميت من دخولها ولا يدخل الى المسجد الحرام ولا يُوضع على باب الكعبة منظرحًا فى باب مولاه الكريم تعالى ويُحْرَم من هذه البركات كلّها ويأثم من ادخله مواطن هذه الرحمة والخير افتونا، فكتبتُ ما صورته اللهم وفقنا للصواب اعلم رحمنا الله تعالى وإيّاك ان شرف المسجد الحرام وروضة النبىّ صلعم ونزول الرحمة فيهما على من حلّ بهما امرٌ واضحٌ لا شكّ فيه ولا مِرْيَةَ تعتريه وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسنٌ وقد تواطأ اهل الحرمين الشريفين وتطابقت ارآؤهم قديمًا وحديثًا من صدر الاسلام والى الآن على ادخال موتاهم الى المسجد طلبًا لمزيد التبرّك والاسترحام ولم يعهد من علمائنا بالحرمين الشريفين النّكيرُ من ذلك او الانكار على فاعله مع

انه سابغٌ فى مذهب غير الامام ابى حنيفة رضه من الائمة المجتهدين رضى الله عنهم فلا نقدم على تأثيم السلف الصالح فيما فعلوه طلبًا لمزيد الرحمة والرضوان والبركة واختلاف الائمة رضوان الله عليهم رحمة ويجوز للمقلد الاخذ بكلام مجتهد من المجتهدين فى بعض المسايل وان خالف امامه رضى الله عنه ومع ذلك فقد وجدت نقلاً صريحًا فى المحيط البرهانى عن الامام الثانى ان فى رواية عنه قوله مثل قول الامام الشافعى رضه وصورة ما نقل وانما تكره الصلوة على الجنازة فى المساجد الجامع ومساجد الحى عندنا وقال الشافعى رحمه الله لا تكره، وعن ابى يوسف روايتان فى رواية كما قال الشافعى وفى رواية اذا كانت الجنازة خارج المسجد والامام والقوم فى المسجد لا تكره انتهى، فترجح عندى ان افتى بالجواز من غير كراهة واعتمدت على هذه الرواية واحسنت الظن بالسلف الصالح وكفى بالامام ابى يوسف رضه قدوة فى هذه المسئلة فاعلم ذلك واحفظه فانه نفيس ولا تجمد مع الجامدين على ان الكراهة كراهة تنزيه نص عليه شرف الائمة العقيلى كما نقله عنه الامام الزاهدى رحمه الله، قاله الفقير قطب الدين الحنفى غفر الله تعالى ذنوبه،

قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى فى كتابه اتحاف الورى باخبار أم القرى فى حوادث سنة ٩٣٦ه وفيها عمر الامير مقبل القديدى باب الجنايز على صفته الآن لانه كان قد سقط ما فوق احد البابين الى منتهى جدر المسجد الحرام المقابل لرباط المراغى وتخرب ما بين هذا الباب والباب الآخر وأزيل الحاجز الذى كان بينهما وازيلت الاسطوانتان الرخام اللتان كانتا تليان هذا الحاجز وعمر بحجارة منحوتة حتى ارتفع

وممّر اماكن بهذا الموضع بين باب علىّ وباب العبّاس وموضع اخر يتّصل بباب الافضلية انتهى ، قلتُ رباط المراغى هو الآن محلُّ مدرسة السلطان الاشرف قايتباى لله هى منزل امير الحاجّ المصرى فى هذا الزمان والمدرسة الافضلية هى من اوقاف الخواجا محمد بن عبد الله وبينهما بابان للمسجد الحرام اصلهما باب واحد يقال له باب النبىّ صلعم وكان يدخل المسجد من هذا الباب لان دار السيّدة خديجة رضهما فى هذا الصّوب وهى الان مزار يزار وهذا الباب يقال له الآن باب الحريريّين لان الحرير يُباع خارج هذا الباب ، قلتُ وعادة الناس فى زماننا ادخال الجنايز من باب العباس وتخرج من باب السلام وانا ارى ان تدخل الجنايز وتخرج من باب الحريريّين ما بين مدرسة قايتباى ودار الخواجا ابن عباد الله لان النبى صلعم كان يدخل من هذا الباب الى المسجد ويخرج منه لا شكّ انه اكثر بركةً وخيراً من سايرابواب المسجد الحرام وانّما يقال له باب القفص لان الصّيّاغ يضعون الحُلىّ فى أقفاص للبيع بقرب هذا الباب ، قال النجم عمر بن فهد وفيها عمّر الامير مُقبل المذكور عدّة عقود بالمسجد الحرام فى الجانب الشامى من الدّكّة المنسوبة الى القاضى ابى السعود ابن ظهيرة الى باب الحجلة خلف مقام الحنفية وزاد فى عرض العقود لله تلى الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود فى الصفّ الثالث واحكم الاساطين لله عليها هذه العقود وهى سبع اساطين فى الرواق الاول وثمان فى الذى يليه وثلاث فى الذى يليه وسبع متّصلة بجدار المسجد ، وجدّد من ابواب المسجد الحرام باب العبّاس وهو ثلاثة ابواب وباب علىّ وهو ثلاثة ابواب ايضاً والباب الاوسط من ابواب الصّفا وهى خمسة وباب الحجلة وهو باب واحدٌ وأحَدَ

باب الزيادة وهو الواقع فى الركن الغربى من الزيادة ورمّم باقى ابواب المسجد وبيّض غالبه واصلح سقفه وكلّ ذلك على يد الامير مقبل المذكور ومعماره المعلم جمال الدين يوسف الهندس رحمه الله وفى هذه السنة جدّد الاشرف برسباى الكسوة الحرآء داخل الكعبة الشريفة وكساها من داخل وازال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن بن قلاون وجاءت الكسوة الجديدة على يد الزينى عبد الباسط ناظر الجيش صاحب الباسطية لله على باب العجلة على يسار الداخل الى المسجد الحرام وهى مدرسة وخلاوى للفقرآء فى غاية الاستحكام والاتقان وللمدرسة شبابيك مشرفة على المسجد الحرام وسبيل الى جانب المدرسة باقية الى الآن بيد الخازنين من ائمّة مقام الحنفى تسكنها الاعيان الواردون الى الحجّ وكانت عليها اوقاف بمصر دُثرت الآن وبنى ايضًا عبد الباسط سبيلاً وحفر بيرًا فى طريق العُمرة على التنعيم على يسار الذاهب الى العمرة موجودة الى الآن بقرب الموضع الذى يقال له فخّ بالفاء والخاء المعجمة فيه مدفن الامام ابى عبد الله الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن بن على بن ابى طالب رضه وكان احد الاجواد فى الاسلام وكان يقول ما اظنّ ان لى اجرًا فيما اعطيه فقيل له وكيف ذلك قال لانّ الله تعالى يقول لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون ووالله ما هذا عندى وهذا الحَصَى الا بمنزلة واحدة وكان خرج على الهادى العباسى بمكة وقاتل خالد اليزيدى ومن معه من جنود العبّاسيّين وهزمهم ثم وصل محمد بن سليمان بجنود أُخرى من قبل الهادى ونزل الحسين بن على بفخّ وقاتل قتالاً شديدًا الى ان قُتل هو وجماعة من شيعة اشراف بنى حسن رحمهم الله تعالى وحُملت رؤسهم وهى مايتة راس

يقدمها راس الحسين بن علي الى الهادي ويقال له الحسين بن علي الفخّ اليعبي ، وروى ابو الفرج الاصبهاني في مقاتل الطالبيين باسناده الى النبي صلعم قال انتهى رسول الله صلعم الى فخّ فصلّى باصحابه صلوة الجنايز ثم قال يُقتل ههنا رجل من اهل بيتي في عصابة من المسلمين ينزل لهم بأكفان وحنوط من الجنّة تسبق ارواحهم الى الجنّة اجسادهم انتهى ، وعبد الباسط هذا هو ابن خليل بن ابراهيم الدمشقي ثم القاهري ناظر الجيش في ايام الظاهر ططر فمن بعده كان عزيزاً رئيسًا كريمًا نافذ الكلمة عالي الجاه واسع العطايا كثير الهمّة له في كلّ واحد من هذه المساجد الثلاثة مدرسة وكذلك بالقاهرة مدرسة عظيمة وبالشام وبغزّة وله على جميع هذه المدارس اوقاف كثيرة بمصر كانت تغلّ مغلًّا كثيرًا واستولى عليها الخراب الآن وكانت له سحابة للقفرآء تُنْصَب له في الطريق ليستظلّوا تحتها وكانوا يحملون على جمال في شقادف اعدّها لهم وكانوا يسقون الماء العذب كلّما احتاجوا اليه ويطعمون الخبز الطري والبكسماط وكان يطبخ لهم في المناهل ويذبح لهم الغنم في الذهاب من مصر الى مكة وفي مدة الاقامة بها والعود منها الى مصر مع الاحسان اليهم والى غيرهم واصلح كثيرًا من درب الحجاز وكان متكلّمًا على اوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمّرها ونماها الى ان فاضت وكثرت في ايامه ، وقد ذكر شيخ الاسلام قاضي القضاة بمصر الشهاب احمد بن حجر العسقلاني رحمه الله في كتابه فتح الباري ان الصالح بن الناصر بن قلاون اشترى ثلثي قرية يقال لها بيسوس من وكيل بيت المال ثم وقفها في كسوة الكعبة الشريفة ولم تزل تُكْسَى من ريع تلك القرية الى ان فوّض امرها المويد شيخ الى الزّيني عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش فنَمَتْ

وكثر ريعها وبالغ فى تحسينها بحيث يعجز الواصف عن وصف حسنها جزاه الله على ذلك خيرًا انتهى، وكفاه فخرًا ذكر هذا الثناء والوصف الجليل فى مثل ذلك بهذا التاليف العظيم، ورايت فى شرح ايضاح المناسك للسيّد نور الدين على السّمهودى الحسنى عالم المدينة رحمه الله ما لفظه وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى هذه الأعصر من وقف قرية يقال لها سنديس فى طرف القَلْيُوبية ممّا يلى القاهرة شراها السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاون من وكيل بيت المال ووقفها لان تكسى منها الكعبة الشريفة كلّ سنة وتكسى الحجرة الشريفة النبوية فى كلّ خمس سنين مرّة على ما قاله الزّين المراغى فى ذلك فى عشر الستّين وسبعماية، اقول هذه القرية موجودة الآن بمصر لكن ذكر لى من كتبة ديوان مصر الفاضل الكامل مولانا مُصْطَفى چلبى ابن مَسيح زاده لمّا كان مقيمًا بمكة المشرفة ناظرًا على الحرم الشريف المكّى ذكره الله تعالى بالصالحات والرحمة ان هذه الاوقاف ضَعُفت جدًّا وقلّ محصولها وصارت لا تفى بكسوة الكعبة الشريفة فعرض ذلك على ابواب المرحوم السلطان سليمان خان، اسكنه الله تعالى فسيح الجنان، فامر بالحاق قُرًى أُخرى اشْتُرِيَتْ من بيت المال واوقفها وألحقها باوقاف كسوة الكعبة الشريفة وهى باقية الى الآن ومنها كسوة الكعبة الشريفة فى كلّ عام، ولنَعُد الى تكميل ترجمة القاضى عبد الباسط كانت وفاته رحمه الله تعالى يوم الثلثاء لاربع ليال مضين من شوال سنة ٨٥٤، وتوفى السلطان الملك الاشرف برسباى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجّة سنة ٨٤١ وفى يوم وفاته تولّى الملك بعده ولده الملك العزيز ابو المحاسن جمال الدين يوسف وعمره يومئذ

اربعة عشر عامًا وهو التاسع من ملوك الجراكسة بمصر وصار مدبّر مملكته الاتابك جقمق العلائى ولا زال يقوى امره والاقدار تساعده الى ان خلع الملك العزيز يوسف بن برسباى بعد ان تسلطن نحوًا من خمسة اشهر ثم يكن له شيها الا مجرد الاسم وتسلطن مكانه فى يوم الاربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة ٨٤٢ ولقبوه الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى وجلس على سرير الملك وتمّ امره وهو العاشر من ملوك الجراكسة وكان جُلِبَ من بلاد جركس الى مصر وباعه جالبه فاشتراه علاء الدين على بن الاتابك اينال اليوسفى فنُسب اليه فقيل له جقمق العلائى ثم انتقل الى الظاهر برقوق فقيل له الظاهرى وكان عنده خاصكيًّا ثم صار فى دولة الناصر ساقيًا عنده ثم صار امير عشرة ثم صار فى دولة المويد خازندارًا ثم صار من مقدمى الالوف ثم فى دولة الاشرف صار حاجب الحُجّاب ثم امير اخور كبير ثم امير سلاح ثم صار اتابك الى ان تسلطن فخرج عن طاعته الامير قرقماس فقاتله ثم ظفر به وسجنه بالاسكندرية ثم قتله ، ثم خرج عن طاعته نايب حلب تغرى برمش ثم اينال الحكمى نايب الشام فجهّز عليهما العساكر فقاتلوهما واحدًا بعد واحد وظفر بهما وقتلهما وبعد قتل هولآء صفى له الوقت فأخذ وأعطا واقدم وسطا وصار متواضعًا محبًّا للفقهاء والعلماء والصالحين يميل الى تربية الايتام ويحسن اليهم عفيفًا من المنكرات طاهر الفم والذيل لا يُعْلَم من ملوك الجراكسة قبله ولا بعده اعفّ منه وكان على قاعدة الاتراك الدَّعْوَى عنده لمن سبق يذاكر بمسايل فقهيّة ويتعصّب لمذهب ابى حنيفة رضه وملك مصر نحوًا من خمسة عشر عامًا الى ان أَوْرى الدهر له من زنده نارًا ، وبدّل

عيشه الاخضر بالموت الاحمر ولم يجدْ له انصاراً، وانخفض تحت الارض بعد تحت الملك قراراً، واصفرت الارض منه فى سابع صفر سنة ٨٥٧ ﻫ

وكان الظاهر جقمق اول ما ولى السلطنة التفت الى مكة المشرفة وارسل خلعًا ومراسيم للسيّد بركات بن حسن بن عجلان بولاية مكة وارسل اليه سُودُون الحمدى ليكون اميرًا على خمسين فارسًا من الترك مقيمًا بمكة وولاه نظر الحرمَيْن الشريفين وشيّد العمايرِ بها وكان من عمارة الامير سُودُون بالمسجد الحرام سنة ٨٤٣ انه قلع الرخام الذى فى سطح الكعبة الشريفة لانه كان ينقط منه الماء فى وقت المطر الى جوف الكعبة الشريفة وكان الخشب الموضوع فى السطح الشريف الذى تُربَطُ فيه حبالُ الكسوة الشريفة قد تآكل وتآكل خشب الروازن الاربعة لله فى سقف الكعبة لله كانت للضوء فغيّر ذلك جميعه وجرّد الكعبة الشريفة من خارجها عن الكسوة ووُضعت الكسوة داخل البيت الشريف واستمرّت مجرّدة يومَيْن وليلتَيْن فصارت مكشوفة يشاهد الناس احجارها الى ان كمل ترميمها واصلاحها وأُعيدت الكسوة عليها فى ضحى يوم الاثنين ثمان بقين من شهر صفر سنة ٨٤٣ ﻫ واصلح ايضاً رخام داخل الكعبة من الجدر المقابل للباب الشريف واصلح ايضاً رخام الحجر وبيّض ماذنة باب السلام واصلح ماذنة باب العُمرة وبيّض ماذنة باب الحزورة ورمّم اسافل ماذنة باب علىّ واصلح سقف المسجد الحرام فى تلك الجهة لخرابه واصلح الرفرف الدايرِ بالمسجد الحرام وبيّض علوّ مقام ابراهيم وعلوّ مقام الحنفية وقبّة باب ابراهيم والاميال لله بلصق دار العباس فى المسعى والميل الذى فى ركن المسجد بقرب باب بازان والذى يقابله لله هى علامة للسّعْى بينهما وعيّن فى كلّ ميل قنديلًا

يوقد بالليل من قناديل الحرم الشريف فى شهر رجب وشعبان وشهر رمضان تعمى للمعتمرين وفى بعض ذى الحجّة للاضاءة على الحجاج اذا ارادوا السّعى وجعل على الصفا قنديلاً وعلى المروة قنديلاً ، ثم عمّر الامير سودون المذكور ما بقى من المواضع المأثورة فى منى وفى المشعر الحرام بمزدلفة ومسجد نمرة بعرفة وقطع جميع اشجار السّلم والشوك الذى كان بين المأزمين فى طريق عرفة وكانت تمزق كسوة الشقادف والحمير عند مزاحمة جمال الحاجّ فى ذلك المحلّ وكانت الحرامية تكمن تحت الاشجار وتنهب جميع ما تظفر به من الحجاج وتخطف منهم جميع ما تقدر عليه فقطع الامير سودون جميع تلك الاشجار وازال الصخور الكبار ونظف الطريق ووسّعها وشكره الحجاج على ذلك ودعوا له حيث كانت تضرّ فى طريق المسلمين والاّ فشجر الحرم لا يُعضد ولا يُقطع فرحم الله تعالى روحه الشريفة واثابه الحسنى ، وكذلك الامير خوشكلدى نايب جدّة فى عصرنا فى حدود سنة ٩٥٠ قطع اشجار السلم ما بين المأزمين وكسر الاحجار الكبار ورصمها فى سفح الجبلين ومهّد ووسّع الطريق للحاجّ ودفع بذلك عنهم شرّ السُّرّاق الذين كانوا يكمنون خلف تلك الاشجار والاحجار وشكره الناس على ذلك اثابه الله تعالى وسيأتى شئ من عماراته فيما بعد ان شاء الله تعالى ، وفى موسم سنة ٨٤٨ وصل مع الركب المصرى رسول سلطان العجم شاهرخ مبرزا بكسوة للكعبة الشريفة وصدقة لاهل مكة فكُسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة فى يوم عيد الاضحى وفُرّقت الصدقة على اهل الحرم ، وفى سنة ٨٥٠ وصل بيرم خواجا ناظرا على المسجد الحرام وبنى بالمعلاة سبيلاً وحوضًا ينتفع بهما الناس والبهايم على يمين الصاعد الى المعابد وصار الآن فى عصرنا بستانًا

عمّره خواجا قبيني مولانا محمد بن محمود افندى قاضى مكة المشرفة فى سنة ٩٦٧ وقدّمه لجانم سلطان زوجة الوزير الاعظم رستم باشا وامّها والدة السلاطين خاصكى سلطان رحمهما الله وهو الآن فى تصرّف ناظر عمارتها بمكة المشرفة ، وفى موسم سنة ٨٥٠ ايضًا حجّ وزير من وزراء السلطان مراد الثانى طيّب الله ثراه جاء بصدقات جليلة وخيرات واغرة جزيلة لاهل الحرمين الشريفين ورمى فى بركة قبّة العباس بالحرم الشريف ثلاثمائة وستّين راس سُكّر وعدّة قناطير من العَسَل وسقى الناس وملأ القرب وخرج بها السقّاءون الى المَسْعَى يسقون الناس وصدّق على الحجاج واهل الحرمين اموالاً جزيلة تقبّل الله منه صالح اعماله ، وفى سنة ٨٥٢ عمّر ناظر الحرم بَيْرَم خواجا فى الجانب الشرقى قطعة من جدار المسجد الحرام تلى رباط السدرة الذى هو الآن رباط الاشرف قايتباى وعمّر شباك خلوة منسوبة للشيخ عفيف الدين عبد الله بن اسعد اليافعى وشباك خلوة منسوبة للشيخ جمال الدين محمد بن ابراهيم المرشدى وجدّد فى الرواق القبلى من الجانب الشامى سبعة عقود وعمّر ايضًا عين حُنَيْن واصلح مجاريها ورمّها ترميمًا مُحْكَمًا ، ووصلت فى ذلك العام كسوة الحِجْر اسماعيل مع كسوة البيت الشريف ولم يُكْسَ بها الحِجْر الشريف لانه لم تجر بذلك عادة قبل هذا ووُضعت داخل البيت الشريف ثم كُسِىَ بها الحِجْر الشريف من داخله فى العشر الاخير من ذى الحجة سنة ٨٥٣ بعد ان حفظت فى جوف البيت الشريف سنة كاملة ، وعمّر ناظر الحرم الشريف بَيْرَم خواجا عدّة برك فى عرفة كانت داثرة مملوة بالتراب فاخرج ترابها واصلحها وساق اليها الماء من الابار التى بقربها ليشرب الحجاج وعمّر مسجد نمرة بعرفة وعمّر مسجد الخيف بمنى

وصرف مالاً عظيمًا فى جهات الخيرات، ثم عزل ناظر الحرم المذكور بالتاجى الامير بُرْدبك ووصل الى مكة المشرفة ليلة الاحد السادس والعشرين من شعبان سنة ٨٥٤ وطاف وسعى وعاد الى الظاهر ودخل صبح تلك الليلة من اعلا مكة ولاقاه اكابر مكة واعيانها ولبس الخلعة السلطانية وقرا موسومه بالحطيم وهو مؤرخ بثانى عشر جمادى الاخرة يتضمّن انه ولى نظر الحرم الشريف والربط والاوقاف والصدقات وان يحاسب من كان قبله وان يكون محتسبًا بمكة واستمرّ بهذه الوظايف وهو قايم الجاه نافذ الكلمة وباشرها مع التمكين وعمّر فى اواخر السنة بعض سقوف المسجد الحرام، وفى هذه السنة آجر قاضى القضاة ابو السعادات ابن ظهيرة الشافعى رحمه الله رباط رامشت لوكيل القاضى ناظر الخاصّ ثم وصلت فتاوى بعدم صحّة اجارة الوقف اجارة طويلة فاستبدل له وحكم بصحّة الاستبدال حاكم حنفىّ ثم امر بعمارته رباطًا فعمّره له ناظر الحرم الشريف التاجى بُردبك وفتح فيه عدّة شبابيك على الحرم الشريف على الوضع الذى هو باقٍ عليه الى الآن، وفى سنة ٨٥٦ وصلت احكام من الظاهر جقمق تتضمّن الامر باخراج ما على الكعبة الشريفة من داخلها من الكسوة المنسوبة الى شاهرخ ميرزا والكسوة المنسوبة الى الاشرف برسباى وان تبقى كسوة الملك الظاهر جقمق وحدها ففعلوا ذلك، وفيها سافر امير الترك الراكز بمكة الامير جانبك النوروزى وولى عوضه فى منصبه ناظر الحرم التاجى بُرْدبك،

وفى سنة ٨٥٧ وردت القُصّاد من مصر تخبر بان الملك الظاهر جقمق زاد به مرضه فخلع نفسه من السلطنة فى يوم الخميس لتسع بقين من الحرم الحرام من السنة المذكورة لولده ابى السعادات فخر الدين عثمان ولقّبه

الملك المنصور وعقد له البيعة ورضي الناس به واطمانوا وهو الحادي عشر من ملوك الجراكسة واولادهم وتسلطن وسنّهُ دون العشرين ورتب بشعار السلطنة وحمل الاتابك اينال العلائي امير كبير القبّة والطير على راسه وجلس على تخت الملك في قاعة الجبل وباشر الامور الى ان توفي والده بعد سلطنة ولده المذكور باثنى عشر يوماً فوقعت فتنة بين الامراء فخلع الملك المنصور عثمان وتسلطن الملك الاشرف سيف الدين ابو النصر اينال العلائي في صبيحة يوم الاثنين لثمان مضين من شهر ربيع الاول سنة ٨٥٧ وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة واولادهم وهو جركسيّ جلبه الخواجا علاء الدين الى مصر فاشتراه الظاهر برقوق واعتقه الناصر فرج بن برقوق وتنقّل في الدولة الى ان صار في ايام الاشرف بوسباي امير ماية مقدّم الف وولاه الظاهر جقمق الدوادارية الكبرى الى ان جعله اتابكاً واستمرّ الى ان تسلطن وتمّ امره في الملك وطالت ايامه نحو ثمان سنين وشهرَيْن واياماً وكان طويلاً خفيف اللحية بحيث اشتهر باينال الاجرود وكان قليل الظُّلْم قليل سفك الدماء متجاوزاً عن الخطاء والتقصير الا ان عمائبكه ساءت سيرتهم في الناس، وفي ابتداء سلطنته سافر الى امير الترك الراكز بمكة وناظر الحرم ومحتسب مكة الامير بُرْدبك التاجي وولى عوضه امير الترك الراكز بمكة يَشبك الصوفي وطوغان شيخ الحرم ومحتسب مكة وولى مشدّاً على جدّة جانى بك وهو الذي بنى البستان الذي على يسار الذاهب الى منَى المعروف به الى الآن وحفر فيه عدّة ابيار وغرس فيه ما قدر عليه من الاشجار حتى شجر النمرهندي وادركناه فيه ووقف عليه مستغلات بمكة، ولم يَقَعْ في ايام الاشرف اينال عمارة للحرم الشريف واستمرّ سلطاناً الى ان

خلع نفسه من السلطنة وعقدها لولده الملك المؤيد شهاب الدين ابى الفتح احمد بن اينال العلائى فى يوم الاربعاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ٨٦٥ وتوفى والده بعد ذلك بيوم واحد ثم خلعه اتابكه خُوشقدم بعد خمسة اشهر وخمسة ايام وولى السلطنة عوضه الملك الظاهر سيف الدين ابو سعيد خوشقدم الناصرى فى يوم الاحد لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٨٦٥ وهو رومىّ جلبه الخواجا ناصر الدين وبه عُرف واشتراه المؤيّد شيخ واعتقه وصار خاصكيًّا عنده ثم تقلّب فى الدولة الى ان جعله الاشرف اينال اتابكاً لولده فخلعه وتسلطن مكانه وكان محبًّا للخير ودسى الكعبة الشريفة فى اول ولايته على العادة ولمن كانت كسوة الجانب الشرقى والجانب الشامى بيضاء بجامات سُود وفى الجامات التى بالجانب الشرقى بعض ذهب وارسل فى سنة ٨٦٩ منبرًا وكان من خشب فركب فى يوم الاربعاء والخميس فخطب عليه الخطيب فى يوم الجمعة ثانى ذى الحجّة الحرام وكانت مدّة سلطنته ستّ سنين ونصفًا تقريبًا ومرض فطال مرضه وتوفى يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الاول سنة ٨٧٢ وتسلطن فى ذلك اليوم خشقدم الاتابك بلَبَاى وهو الملك الظاهر ابو النصر بلباى المؤيدى وخلع على الامير تمربُغَا الظاهرى بالاتابكية عوضًا عن نفسه وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة واولادهم وكان ضعيفا عن تدبير الملك وتنفيذ الامور فخلعه الامراء من السلطنة فى يوم السبت لسبع مضين من جمادى الاولى سنة ٨٧٢ وكانت مدّة سلطنته شهرَيْن الا اربعة ايام وتسلطن بعد خلعه عوضا عنه الملك الظاهر ابو سعيد تمربغا الظاهرى وهو

الخامس عشر من ملوك الجراكسة واولادهم بمصر وللن يقال انه رومىّ الاصل من مماليك الظاهر جقمق عتقه ورباه صغيرًا الى ان جعله خاصكيًّا ثم سلحدارًا ثم خزندارًا ثم دوادارًا ثانيًا ثم صار فى دولة الملك المنصور دوادارًا كبيرًا ثم أُخرج الى مكة ثم عاد الى القاهرة فى دولة الظاهر خوشقدم فصار مقدّم الف ثم صار فى دولة الظاهر بلباى اتابك العساكر ثم تسلطن وكان له فضل وصلاح وتودّد للناس وحذق ببعض الصنايع بحيث صار يعمل القِسىّ الفايقة بيده ويعمل السهام عملًا فايقًا فيهما ويرمى بها احسن رمى يفوق غيره فيها مع الفروسية التامّة ومع ذلك ما صَفَى له دهره يومًا ورماه عن كبد قوسه ابعد مَرْمى وما زال به الامر الى ان خلعوه ونفوه الى الاسكندرية وولى السلطنة اتابك العساكر يومئذ **الملك الاشرف قايتباى المحمودى الظاهرى** فى ظهر يوم الاثنين وهو سادس شهر رجب سنة ٨٧٢ وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة واولادهم بمصر مولده ببلاد جركس تقريبًا فى بضع وعشرين وثمانماية جلبه الخواجا محمود الى مصر فنُسب اليه واشتراه الاشرف برسباى وعتقه الظاهر جقمق واليه انتسب وتنقّل فى المراتب الى ان صار فى دولة الظاهر خوشقدم امير ماية مقدم الف ثم صار فى دولة السلطان بلباى راس نوبة النوب ثم فى دولة الظاهر تمربغا اتابكًا ثم صار بعد خلعه سلطانًا بعد تعزُّز منه وتمنُّع وحصّلت له البشارة بالسلطنة من عدّة من اولياء الله تعالى الصالحين قبل ان يليها وكان محبًّا للخير معتقدًا فى الصلحاء حُكى عنه انه كان يحكى عن نفسه انه لمّا جُلِبَ الى مصر للبيع وهو أمرد مراهق او بالغ كان معه رفيقه احد المماليك الجلب فتحادثوا مع الجمّال فى ليلة من ليالى شهر رمضان فقالوا

لعلّ هذه الليلة ليلة القدر والدّعاء فيها مستجاب فليَدْعُ كلُّ واحد منّا بما يحبّه فقال قايتباى أمّا انا فاطلب سلطنة مصر من الله تعالى فقال الثانى وانا اطلب ان اكون اميرًا كبيرًا والتفتا الى الجمّال وقالا له اىّ شىء تطلبه انت فقال انا اطلب من الله تعالى خاتمة الخير، فصار قايتباى سلطانًا وصار صاحبه اميرًا كبيرًا فكانا اذا اجتمعا يقولان فاز الجمّال من بيننا رحمه الله، وكان ملكًا جليلاً وسلطانًا نبيلاً له اليد الطولى فى الخيرات والطول الكامل فى اسداء المبرّات بنى المساجد الثلاثة وعدّة رُبُط ومدارس وجوامع عظيمة الآثار وباهرة الانوار وله بمصر والشام وغزّة وغير ذلك آثار جليلة وخيرات جميلة اكثرها باقٍ الى الآن وجميع مبانيه يلوح عليها لوايح النورانية والانس، وفى اول ولايته ارسل الى مكة بالمراسيم والخلع للسيّد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بولاية الحرمين الشريفين والى قاضى القضاة بُرهان الدين ابراهيم بن على ابن ظهيرة الشافعى بقضاء مكة ومراسيم تتضمّن الامر بابطال جميع المكوسات والمظالم وان ينقر ذلك على اسطوانة من اساطين الحرم الشريف فى باب السلام، وفى اواخر سنة ٨٧٤ وانشأ قبلها بنى مسجد للخيف بناء عظيمًا محكمًا وجعل فى وسط المسجد قبة عظيمة على حدّ مسجد رسول الله صلعم فى خيف منى وبنى جداراته المحيطة به وبنا اربع بوابك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبىّ صلعم وبلصق القبة ماذنة غير الماذنة التى على عقد باب المسجد ارى مهندسها فيها الصناعة العظيمة حيث جعلها على باب المسجد بثلاثة أدوار صنعة الأستادين، وبنى دارًا بلصق الباب كانت مسكن امرأة الحاج وعلى الباب فى الدار المذكورة سبيل يملا من

صهريج كبير جُعل فى صحن المسجد يتلى من المطر وجعل للمسجد بابًا آخر الى جهة عرفة وخوخة صغيرة الى الجبل الذى فى سفحه غار المرسلات وهو الموضع الذى أُنزلت فيه سورة المرسلات على النبى صلعم وبالجملة فهذا المسجد اثر عظيم باقٍ الى الآن من آثار المرحوم السلطان قايتباى وقد غلب عليه الدثور عمّر الله تعالى من عمّره او تسبّب فى تعميره ، وعمّر السلطان المذكور مسجد نمرة فى عرفة وهو المسجد الذى يجمع فيه الامام بين الظهر والعصر جَمْع تقديم فى يوم عرفة للحجاج للحرمين فى ذلك الآن لا يجمع عند ابى حنيفة فى غير ذلك الحال جمع تقديم الا فى ذلك المسجد ولا جمع تأخير الا فى المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج وجعل فى صدر ذلك المسجد رواقَيْن عظيمين يتظلّل بهما الحجاج وقت الصلوة عن الشمس ، وجدّد العَلَمَيْن الموضوعين لحدّ عرفة والعلمين الموضوعين لحدّ الحرم وبيّض المسجد الذى بمزدلفة على جبل قُزَح وهو المَشْعَر الحرام على راىٍ وجدّد عين عرفات وابتدا المعمار العمل فيها من سفح جبل الرحمة الى وادى نعمان فوجد الماء بكثرة فاقتصر على ذلك ولم يَصِلْ الى أُمّ العين وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين سنة وكان الحجاج يقاسون فى يوم عرفة من قلّة الماء ما لا يُصْبَرُ عليه ثم اصلح البرك وملأها بالماء ثم اصلح عين خُلَيْص واجراها واصلح بركتها واجرى قُنَيّتها وامتلات البرك وعمّ النفع بها وبعَيْن عرفات وكان ذلك من اعظم الخيرات بالنسبة الى الحجاج والزوّار ، وفى سنة ٨٧٩ وصل منبر خشب للمسجد الحرام فى الخامس والعشرين من ذى القعدة الى مكة المشرفة فى البرّ فرُكِبَ فى جهة باب السلام وجُرّ الى المطاف وخطب عليه للخطيب فى اول ذى الحجّة ، وفى

سنة ٨٨١ اصلح خشب سقف المسجد بالرواق الشرقى وغيّر رخام الحجر الشريف من داخله وخارجه ورُصّصت الشقوق التى بين احجار المطاف ورُخّم داخل البيت الشريف ، وفى سنة ٨٨٢ امر السلطان قايتباى وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن وشاوره عمايره الامير سُنقُر الجمالى ان يجعل له موضعًا مشرفًا على الحرم الشريف ليبنى له فيه مدرسة يدرّس فيها علماء المذاهب الاربعة ورباطًا يسكنه الفقراء ويعمّر له رُبوعًا ومستغلات يحصل منها ريع كثير يُصرَف منه على المدرّسين وعلى الفقراء وان تقرا له ربعة فى كلّ يوم يحضرها القضاة الاربعة والمتصوّفون ويقرّر لهم وظايف ويعمل مكتبًا للايتام وغير ذلك من جهات الخير فاستبدل له رباط السدرة ورباط المراغى وكانا متّصلَيْن وكان الى جنب رباط المراغى دار للشريفة شمسيّة من شرايف بنى حسن اشتراها منها وهدم ذلك جميعه وجعل فيها اثنتين وسبعين خلوة ومجمعًا كبيرًا مشرفًا على المسجد الحرام وعلى المسعى الشريف ومكتبًا وماذنة وصيّر المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملوّن والسقف المذهب وقرّر فيها اربعة مدرّسين على المذاهب الاربعة واربعين طالبًا وارسل خزانة كُتُب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرّها المدرسة المذكورة وجعل لها خازنًا عيّن له مبلغًا وقد استولت عليها ايدى المستعيرين وضيّعوا منها جانبًا كبيرًا وبقى منها ثلاثمايـة مجلّد وفى نحن نتكلّم مؤلّف هذا الكتاب صُنّفها وكمّلت بعض ما فات منها وجلّدت منها ما يحتاج الى التجليد واستخلصت بعض ما وجدته واعدّته الى الوقف صانه الله تعالى وجعل الواقف فى ذلك المجمع للقضاة الاربعة حضورًا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرءون له ثلاثين

جزءا من القرآن وجعل فقيها يعلّم اربعين صبيًّا من الايتام ورتب لكلّ واحد من الايتام واهل الخلاوى ما يكفيهم من القمح فى كل سنة وللمدرّسين والمؤذّنين وقرّاء الاجزاء مبالغ من الذهب تُصرَف لهم كلّ سنة ، وبنى عدّة ربوع ودور تغلّ فى كلّ عام نحو الفى ذهب ووقف عليهم بمصر قُرًى وضياعًا كثيرة وحُبُوبًا كثيرة تُحمل الى مكة فى كل عام وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعمل ذلك سلطان قبله وذلك باقٍ الى الآن الا ان الاكلة استولت على تلك الاوقاف فضعفت جدًّا وهى آيلة الى الخراب وصارت المدرسة سكنًا لامراء الحاج ايام موسم الحجّ وسكنًا لغيرهم من الامراء اذا وصلوا الى مكة فى وسط السنة وصارت اوقافها ماكلة للنظار عمّر الله من عمّرها وأحيى من احياها وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة والرباط والبيتين احدهما من ناحية باب السلام والثانى من ناحية باب الحزورتين فى سنة ٨٨٤ على يد الامير سنقر الجمالى رحمه الله ، وفى هذه السنة وردت احكام من السلطان قايتباى الى صاحب مكة يومئذ مولانا السيّد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله يتضمّن انه راى مناماً وان بعض المعبّرين عبّر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف امنه امره ان يفعل ذلك فحضر مولانا السيّد الشريف محمد بن بركات رحمه الله بنفسه وقاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن على ابن ظهيرة وباش الترك الراكز بمكة الامير قانى باى اليوسفى والامير سنقر الجمالى والدوادار الكبير الامير جانى بك نايب جدّة المعمورة وبقية القضاة والاعيان بمكة وفاتح بيت الله الحرام عمر بن ابى راجح الشيبى والشيبيّون والخدّام وغسلوا الكعبة الشريفة من داخلها قدر قامة ومن

خارجها قدر قامة وغسلوا ارض الكعبة وساير المطاف الشريف وطيّبوها بالطيب وكان ذلك يوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة ٠

فصل ومن اعظم ما وقع فى ايام السلطان قايتباى من الامور الهايلة حريق المسجد الشريف النبوى ذكرناه استطراداً لانه امرٌ هايل عظيم الهول ٠ وتفصيل ذلك ان فى ثلث الليل الاخير من ليلة الاثنين ثالث عشر شهر رمضان سنة ٨٨٦ طلع رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب الى المأذنة الشريقة اليمنية من ركن المسجد الشريف المعروفة بالريسية وهو يذكر ويهجّد وكانت السماء متراكمة بالغيوم متوارية النجوم اذ سُمع رعدٌ هايل وسقطت صاعقة لها لهبٌ كالنار اصاب بعضها هلال المأذنة فانشقّ راسها ومات المؤذن رحمه الله وسقط باقيها على سقف المسجد الشريف عند المأذنة فعلقت النار فيه ففُتحت ابواب المسجد ونُودى بالحريق فى المسجد ٠ فحضر امير المدينة يومئذ السيّد قسطل بن زهير الحسنى وشيخ الحرم والقضاة وساير الناس وصعد اهل النجدة والقوة الى سطح المسجد بالمياه فى القِرَب يسكبونها على النار لتطفى فالتهبت واخذت فى جهة الشمال والمغرب وعجزوا عن اطفائها فهربوا واستولت النار عليهم فمات منهم فوق عشر انفس وعظمت النار جدًّا واحاطت بجميع سقف المسجد الشريف واحرقت ما فى المسجد من المصاحف وخزايين الكُتُب والربعات وكانت كُتُبًا نفيسة ومصاحف عظيمة وصار المسجد كبحرٍ لجّيّ من النار يرمى بشرر كالقصر الى ان استوعب الحريق جميع المسجد والقبّة العليا التى فوق قبّة النبى صلعم وذاب رَصاصُه ولم يبقَ

اثر النار الى جوف الحجرة الشريفة النبوية على ساكنها افضل الصلوة والسلام لسلامة القبّة السُّفْلَى وعدم التأثير فيها مع ما سقط عليها كما هو امثال للجبال واحترقت حتى حجارة الاساطين وسقط منها نحو مائة وعشرين اسطوانة واحترق المنبر الشريف النبوى والصندوق الذى فى المُصَلَّى الشريف والمقصورة التى حول الحجرة الشريفة وسلمت الاساطين الملاصقة للحجرة الشريفة وسلم ما حول المسجد من البيوت وشوهد اشكال طيور بيض يحومون حول النار كانها تكفّها عن بيوت جيران النبى صلعم مع وقوع بعض شَرَر النار فيها وعدم تاثيره فيها ، قال مؤرّخ المدينة وعالمها وفقيهها مولانا السيّد نور الدين على بن عبد الله السَّمْهودى رحمه الله بعد سوق هذه الحكاية ببسط من هذا فى كتابه خُلاصة الوفا باخبار دار المصطفى صلعم وفى ذلك عبرة تامّة وموعظة عامّة ابرزها الله تعالى للانذار فخصّ بها حضرة النذير الاعظم صلعم وقد ثبت ان اعمال أمّته تُعْرَضُ عليه فلمّا ساءت الاعمال المعروضة ناسب ذلك الانذار باظهار النار المجازى بها فى يوم العرض قال الله تعالى وما نرسل بالايات الا تخويفًا وقال تعالى ذلك يخوّف الله به عباده يا عبادى فاتّقون ، قال وشرعوا فى تنظيف المسجد ونقصوا ما به من الانقاض ونقلوها من مقدّم المسجد الى مؤخّره للصلوة فيه وعمل فى ذلك اميرُ المدينة وقضاتها وعامّة اهلها حتى النساء والصبيان تقرُّبًا الى الله تعالى وبادروا بارسال قاصد الى مصر وعرضوا ذلك على السلطان قايتباى رحمه الله فتهوّل من هذا الحادث العظيم وتوجّه الى عمارة المسجد الشريف وعرف نعمة الله تعالى عليه بتأهيله لهذا الشرف العظيم ورسم بابطال جميع العمائر المكية وغيرها وان يتوجّه شادّها السيفى جمال الدين

سنفر الجمالى مبادرًا الى المدينة الشريفة وارسل اليه نحوًا من ثلاثمائة من ارباب الصنايع وكثيرًا من الحبر والجمال والبغال وساير مُؤنهم ومبلغًا من الخزانة نحو مائة الف دينسار فاكثر وجهّز المؤن الكثيرة الى ان امتلات البنادر بها كالطور والينبع ونقلت الى المدينة الشريفة واستقبلوا العمارة بجدّ واجتهاد الى ان كملت عمارة المسجد الشريف والقبّة الشريفة والمواذن وفرغوا منهما على هذا الوجه الذى هو عليه الآن فى هذا الزمان ، وذكر السيّد السمهودى رحمه الله تفصيله فى كتابه خُلاصة الوفا فراجعه ان اردت احاطة العلم به وذكره بابسط من ذلك فى تاريخه الكبير الذى سمّاه وفاء الوفا باخبار دار المصطفى صلعم ، وامر السلطان قايتبساى ان يبنى له رباط ومدرسة وماذنة حول المسجد الشريف النبوى فبنوا له مدرسة عظيمة ورباطًا مشرفًا على المسجد الشريف ما بين باب السلام وباب الرحمة وارسل الى المدرسة خزانة كُتُب جليلة جعل مقرّها المدرسة موقوفة على طلبة العلم الشريف وارسل مصاحف كثيرة وكُتُبًا لخزانة المسجد الشريف عوض ما احترق فيه منها ، ووقف قُرًى كثيرة بمصر تُحمل غلّاتها الى جيران رسول الله صلعم تفرّق عليهم لكلّ شخص ما يكفيه من الحبّ بطول السنة فكان حصّة كلّ نفر سبعة اراديب فى العام سوّى فى ذلك بين الصغير والكبير والحُرّ والعبد وذلك الخير جارٍ الى الآن وزاد عليه الآن سلاطين آل عثمان اكثر ممّا وقفه السلطان قايتبساى لمكة والمدينة جزا الله المحسنين خيرًا وضاعف لهم ثوابًا واجرًا انه كريم حليم ،

فصل فى حجّ السلطان قايتبساى رحمه الله تعالى ، اعلم ان ملوك الجراكسة ما حجّ منهم احد غير السلطان قايتبساى لتمكّنه فى الملك وكثرة ما

فعله من الآثار الجميلة فى الحرمين الشريفين فاقام الامير الكبير بشسبك الدوادار نايبًا عنه بمصر وخرج الى الحجّ فى سنة ٨٣٣ قبل وقوع حريق المسجد الشريف النبوى بخمس عشرين وكان امير الحاج فى عام حجّه الامير خشقدم خرج بالمحمل الشريف وبركب الحاجّ المصرى فخرج السلطان قايتباى بقصد الحجّ والزيارة بعد خروج ركب الحاج بثلاثة ايام ، ووصلت القُصّاد الى شريف مكّة يومئذ سيّدنا ومولانا المقام الشريف العالى جمال الدنيا والدين السيّد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وكان من اخصّ المخصوصين به وصاحب الحلّ والعقد عنده قاضى القضاة شيخ الاسلام مولانا القاضى برهان الدين ابراهيم بن على ابن ظهيرة القاضى الشافعى يومئذ بمكة طيّب الله ثراه فنهيئ هو والسيّد الشريف محمد ابن بركات لملاقاة السلطان فان القُصّاد اخبروا انهم فارقوه من عقبة ايلة وفى نهاية الربع الاول من طريق الحجّ وارسل مولانا السيد الشريف احد قُوّاده ليسبقه الى ملاقاة السلطان بسماط حُلْوى فوصل الى الحَوْراء ولاقى السلطان ومدّ له السماط الحُلْوى هناك فجلس عليه السلطان بنفسه واظهر غاية اللُّطْف والمجابرة واكل وقسم على امرائه وعسكره وكان سماطًا كبيرًا جليلًا ، وحُكِى من لطافة السلطان قايتباى انه لما جلس على السماط تناول شيئًا من الحلوى يقال له كُلْ واشكرْ فاكل منه وسأل من الذى جاءه بالسماط ايش اسم هذا عندكم فقيل له القايد هذا اسمه كُلْ واشكرْ فقال له سلّم على سيّدك وقُلْ له اكلنا وشكرنا ، ثم لمّا وصل السلطان الى الينبُع عدل منه الى المدينة النبوية لزيارة المسجد صلعم وتوجّه اليها وكان قد خرج لملاقاته سيّدنا ومولانا الشريف محمد

ابن بركات ووالده السيّد هبوع بن محمد ومولانا القاضي ابراهيم ابن ظهيرة الشافعي وابنه القاضي ابو السعود واخوه ابو البركات ابن ظهيرة قاضي جدّة فبلغهم في اثناء الطريق أن السلطان عدل الى زيارة النبيّ عليه الصلوة والسلام فتوجّهوا الى منزلة بدر واقاموا به منتظرين عود السلطان من المدينة الشريفة، قال السيّد علي السمهودي في تاريخه اللبيب حجّ السلطان الملك الاشرف قايتباي في سنة ٨٨٤ وبدا بالمدينة النبوية لزيارة التربة المصطفوية على الحالّ بها افضل الصلوة وازكى التسليمات فقدمها طلوع الفجر من يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام فلبس لدخولها حلل التواضع والخشوع، وتحلّى بما يجبُ لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع، فترجّل عن فرسه عند باب سورها، ومشى على اقدامه بين ربوعها ودورها، حتى وقف بين يدي الجناب الرفيع، الحبيب الشفيع، عليه الصلوة والتسليم، وناجاه بالتسليم، وفاز من ذلك بالحظّ الجسيم، ثم ثنّى بصاحبيه رضي الله عنهما بعد ان صلّى بالروضة الشريفة النحبة، وعفّر جبهته في ساحتها السنيّة، وعرض عليه الدخول الى الحجرة الشريفة فتعاظم ذلك وقال لو امكنني ان اقف ابعد من هذا الموضع وقفت فالجناب عظيم، ومن ذا الذي يقوم بما يجب له من التعظيم، ثم صلّى صُبح الجمعة في الروضة الشريفة في الصفّ الاول بين فقراء الزوّار والى جانبه الشيخ الامام العلامة برهان الدين ابن الكركي ثم توجه لزيارة السيّد حمزة عمّ النبيّ صلعم ومن حوله من الصحابة الذين استشهدوا يوم أُحد رضوان الله عليهم اجمعين فمشى متوجّلا حتى خرج من باب المدينة ولم يزل ذلك دابه ولم يركب بالمدينة تأدّبا مع النبيّ صلعم وعاد من الزيارة وحضر لصلوة الجمعة، قال

السيّد السمهودى رحمه الله فبدانى السلطان باللاطفة وسالنى عن بعض المباحث فرايت من تواضعه وحلمه وتقريب فهمه ما يفوق وصف الواصف فانشدته بيتى التلخيص وهما

كانت مسايلة الركبان تخبرنى عن احمد بن سعيد اطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ اذنى باطيب ممّا قد راى بصرى

فطرب بهما جدًّا واجتمعت به قرب صلوة المغرب فى الروضة ففاتحنى باللام ورای فى الجواب مكتوبًا قوله تعالى قد نرى تقلّب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام فسالنى عن هذه الاية هل نزلت قبل المعراج ام بعده وكيف كان الاستقبال قبل نزولها فشرعت له فى الجواب فاقيمت الصلوة فى اثناء ذلك فصلّينا فلمّا فرغ من هذه الصلوة صلّى ستّ ركعات بسكون وتأدّب فلمّا انقضت الصلوة اقبل علىّ طالبًا للجواب فذكرت له ان نزولها بالمدينة وان فرض الصلوة كان بمكة ليلة المعراج وذكرت له ما حُكى فى تعدّد نسخ القبلة وصلاته صلعم بمكة بين الركنين اليمانيّين جاعلًا الكعبة بينه وبين بيت المقدس الى غير ذلك من الفوايد وهو مُصْغٍ اليها متلذّذ بسماعها فاستمرّ بنا على ذلك حتى اقيمتْ صلوة العشاء فصلّينا ثم عرضت عليه رفع بعض البدع من المدينة فامر برفعها وطلبت منه رفع المكوس من المدينة فامر بازالتها وجعل لامير المدينة فى مقابلة ذلك الف اردب قرّرها له فى كلّ عام وفرّق بالمدينة الشريفة على فقرآئها وفقهاءها وعلمائها نحو ستّة الاف ذهب وحصل لى منه خير كثير واحسان جزيل ، ثم برز فى اليوم الثالث من المدينة الشريفة قاصدًا حجّ بيت الله الحرام انتهى كلام السيد السمهودى ملخصًا ،

قال العزّ ابن فَهْد فلمّا وصل الخبر الى بدر بعود السلطان وبُروزه من المدينة الشريفة الى السيد الشريف محمد بن بركات ومن معه ركبوا من بدر لملاقاة السلطان فاجتمعوا به فى منزلة الصفرآء وتلاقيا على ظهور الخيل وتصافحا ومشى السيد الشريف عن يمين السلطان والقاضى برهان الدين ابن ظهيرة عن يساره وباقى من معهما سلموا على السلطان على بُعد ومشوا امامه وصار السلطان يلاطفهم ويسأل عن احوالهم ويشكر مسعاهم ويطمّن خواطرهم ويجابرهم بالمكانة وينصبت لهم اذا تكلّموا واستمرّوا كذلك الى ان وصل السلطان اوطاقه فرجعوا عنه الى مُخَيَّمهم ثم صاروا يسايرونه فى الطريق ويظهر كمال النشاط ويبدى لهم وافر الانبساط والبسهم السلطان خلعًا فاخرة مرارًا عديدة وفارقوه من بدر وتقدّموا على السلطان الى وادى مرّ الظهران ورتبوا هناك سماطًا حافلًا جميلًا للسلطان ولمن معه فلمّا كان صُبح يوم الاحد مستهلّ ذى الحجّة وصل السلطان مُخَيَّمه بالوادى ووجد السماط مُمدودًا فجلس السلطان ومن معه على السماط واكل منه واطعم وفرّق على من معه من عسكره الخاصّ به وخلع على الخُدّام والانفار الذين مدّوا السماط خلعًا فاخرة متعدّدة جميلة ووصل بقية القضاة والخطباء والاعيان من مكة للسلام على السلطان فسلموا عليه وانصرفوا امامه وركبوا وركب السلطان ومعه شيخ الاسلام القاضى ابراهيم ابن ظهيرة وولده القاضى ابو السُّعود واخوه القاضى ابو البركات وامام السلطان الشيخ برهان الدين الكركى الحنفى واستمرّوا الى ان دخلوا مكة من اعلاها وكان القاضى ابراهيم هو الذى تقدّم لتطويف السلطان وصار يلقّنه الادعية والتلبية الى ان وصل السلطان ودخل من باب السلام البرّانى فطلع

بفرسه منه فجعل به جواده فسقطت عمامته واستمرّ مكشوف الراس الى
ان تقدّم المهتار رمضان وتناول العمامة من الارض ومسحها وناولها
السلطان فلبسها وكان ذلك تاديبًا له من الله تعالى حيث كان يتعيّن
عليه ان يترجّل ويدخل محرمًا مكشوف الراس تواضعًا لله تعالى ، ثم
لمّا وصل الى العتبة الداخلة من باب السلام ترجّل ونزل وقرأ بين يديه
الرئيس بصوت جهوريّ قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرويا بالحقّ
لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلّقين رؤسكم ومقصّرين لا
تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا هو الذى ارسل
رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيدًا ،
ثم انه رفع يده للدّعاء للسلطان وامّن من حوله من اهل الاصوات ودخل
من باب السلام ومولانا القاضى ابراهيم يلقّنه الدعاء الى ان دخل
الطواف وقبّل الحجر الاسود وهو الذى يطوّفه ويلقّنه الادعية والرئيس
ينادى بالدعاء له من اعلا قبّة زمزم والناس محيطون بالمطاف الشريف
يشاهدونه ويدعون له الى ان اتمّ طوافه وصلّى خلف مقام ابراهيم ثم
خرج من باب الصّفا الى الصفا وسعى راكبًا ومعه مولانا القاضى ابراهيم
يلقّنه الدعاء فلمّا فرغ من سعيه ركب فعاد الى الزاهر وبات فى مخيّمه
وركب فى الصّبح فى موكبه ولاقاه مولانا الشريف السيد محمد بن بركات
واولاده وقاضى القضاة البرهان ابراهيم ابن ظهيرة وابنه الجمال ابو
السعود واخوه القاضى فخر الدين وابن عمّه والخطباء واعيان النّاس
واكابر التجار فخلع السلطان قايتباى على الجميع ومشوا امامه فى موكب
عظيم وأبّهة عظيمة ولم يتخلّف احد بمكة من الرجال والنساء حتى
المخدّرات ودخل مكة بهذا العنوان الى ان وصل الى مدرسته فترجّل

الناس له وسلم عليهم ودخل الى مدرسته ومَدّ له بهما مولانا السيد الشريف محمد بن بركات سماطا حافلاً جليلاً واستمرّ على ذلك تُمدّ له صُبْحًا وليلاً الاسمطة الجميلة ومُدّ له فى ثانى يوم قاضى القضاة البرهان ابراهيم سماطًا جميلاً واستمرّ السلطان بمدرسته ما ظهر لاحد غير انه يتصدّق بالليل كثيرًا ، وركب مَرّةً الى درب اليمن ليشاهد ما قدم له مولانا السيد الشريف من الابل والخيل وتشكّر من فضل السيد الشريف واستمرّ بمدرسته الى ان طلع الى عرفات ومعه امامه راكب الى جانبه وهو شيخ الشيوخ البرهان ابراهيم ابن الكركى والامير بشبك الجمالى واولاد القاضى يحيى بن الجيعان كاتب السرّ وحفيده القاضى ابو البقاء ابن الجيعان ورمضان المهتار ووقف بجبل الرحمة متضرّعًا الى الله تعالى سايلًا من رحمته القبول وكانت الوقفة يوم الاثنين فافاض مع الناس واتمّ حجّه وقرّب الاضاحىّ عنها كثيرة واهدى شيئًا كثيرًا وكان يناسب ان يحر شيئًا من البُدْن فما اشار عليه احدٌ بشىء من ذلك وعاد بعد ايام التشريق الى مكة ، وتوجّه الركب المصرى وتأخّر هو بمكة ايامًا وقرّر وظايف مدرسته لاهلها من المدرّسين والطلبة وقراة صحيح البخارى وقراة الربعة وخادمها وخادم المصاحف والفرّاشين والبوّابين والوقّادين والخبّازين والسقّائين والبمبّيل والايتام والعريف والفقيه والمؤذّنين وناظر المدرسة والوقف والجابى والصيرفى واصحاب الخلاوى ونحو ذلك وجعل لكلّ واحد كفايته من القمح والدراهم والزيت وكتب بذلك وقفية اشهد على نفسه بذلك فيها وعمل من الخيرات ما لم يُسبق اليه وحضر بنفسه يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجّة بطرف الايوان الشمالى وقاضى القضاة البرهان ابراهيم ابن ظهيرة

بصدر الايوان وقدامه المصحف على كرسى وفرق على الحاضرين اجزاء الربعة الشريفة وتناول السلطان جزءًا منها كاحد القرّاء وقرءوا الى ان ختم القاضى ابراهيم ولم يؤخذ من السلطان للجزء حتى وضعه بنفسه وجُمعت الاجزاء فى صُنْدوق الربعة ودعى الداعى للسلطان ومدّ للحاضرين سماطًا حلوا بدَوْر المدرسة ونزل السلطان وجلس الى جنب القاضى ابراهيم واكلوا ثم سقاهم سُكّرًا وسُوبية وفرق عليهم فتوحًا وانصرفوا ثم بنى السلطان سبيلاً على يمين الداخل الى خان البزّازين بالمَسْعَى يقال له العلقمية وكان امامه الى جهة القبلة بالمسعى سبيل قديم للقاضى شهاب الدين الطبرى على يمين الذاهب الى المروة فاشار الخواجا شمس الدين ابن الزمن والمهندس ان يهدم هذا السبيل حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله فهُدِمَ وصار المَسْعَى مكشوفًا وعمارة الخان والسبيل ظاهرًا، وخرج السلطان فى ظهر يوم السبت لاربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجّة بعد ان طاف للوداع والرئيس يدعو له على قبّة زمزم ومشى القَهْقَرى الى ان خرج من باب الحزورة وركب معه السيد الشريف محمد ابن بركات واولاده وقاضى القضاة ابراهيم ابن ظهيرة الى الزاهر ثم ردّهم ووادعهم وسار الى مصر وعاد الى مملكته لم يختل عليه شئ من امر مملكه مع غيبته عن تخت مصر مدّة سفره الى الحجّ وعوده اليها وهو نحو ثلاثة اشهر وذلك لاتقانه امر المملكة وتدبيره فيه وضبطه رحمه الله، وكان واسطة عقد ملوك الجراكسة، واقربهم الى قلوب الرعية فى اللُّطف والمؤانسة، واجملهم جمالاً واجمالاً، واحسنهم احسانًا وافضلهم افضالاً، واكملهم عقلاً ونُبْلاً واعتدالاً، واكثرهم فى جهات الخير آثارًا، واوفرهم عمايرَ واوقافًا وادرارًا، واطولهم طولاً وزمانًا، واكملهم ملكًا وقُوّة وامكانًا، وكانت

ايامه كالطراز المذهب، ودولته تتجلى كالعروس فى حُلَل الجواهر والذهب، وعاشت الرعية فى ايامه عيشًا رَغَدًا، وظهرت العلماء فى ايامه ونموا فصاروا نجوم الهُدَى، الى ان تنبّه له الزمان الجابر، واستيقظت له عيون صروف الليالى والجدود العواثر، ودارت عليه كما دارت على من قبله الدوابر، وهذا شان الدنيا الدنيّة فى ابنائها الاصاغر والاكابر، ودابها فى السلاطين والملوك الغوابر، والبقاء والدوام لله عزّ وجلّ القدير القاهر، فقدّر على قاينباى بريدُ اجله، ومسا اغنى عنه مسا جمعه من خيله وخَوَله، ولا منع عنه شيء من حيله وحوله، فاقدر على ما قدّر من صالح عمله، وترك ما خوّله من متاع الدنيا ورآء ظهره، وأُدرِج فى اكفان اعماله بعد ما غسل بدموع فقره، وانزل من سرير الملك على التابوت الى قبره، وقدم على ربّ كريم، ووقف بين يدى ملك غفور رحيم، وانشد لسان حاله وهو بين يدى ملك الملوك الحكيم العليم،

اذا امسى فراشى من تراب وصرت مجاور الرمس الرميم
فهنّونى اصيحا بى وقولوا لك البشرى قدمت على كريم،

وكان انتقاله الى رحمة الله تعالى فى اواخر يوم الاحد لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٩٠١ وصُلّى عليه يوم الاثنين ودفن فى الصحراء بتربته بناها فى حياته فى غاية الحسن والزينة وبها مساكن للقرّاء واوقاف دارّة عليهم الى الآن ليس بمصر احسن تربة منها وصلى عليه بعد ذلك صلوة الغايب بالمساجد الثلاثة وكان له مشهد عظيم لم يُعهَد لملك قبله وكانت مدّة سلطنته ثلاثين سنة الا ثمانية اشهر ولم يملك احد من ملوك الجراكسة قدر مدّة ملكه،

وتولّى بعده الملك ولده الملك الناصر ابو السعادات محمد

وكان شاباً يغلب عليه الجنون والسفه ما كان له التفات الى الملك ولا الى السلطنة بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة يحكى عنه امور قبيحة منها انه كان اذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها وقطع دابر فرجها ونظمه في خيط أعدّه لنظم فروج النساء ومنها ان والدته وكانت من اعقل النساء واجملهن هيّأت له جارية جميلة جدًّا وجمعتها به في بيت مزيّن اعدّته لهما فدخل بها وقفل الباب على نفسه وعليها وربطها وشرع يسلخ جلدها عنها كالجلّادين وهي حيّة فلمّا سمعوا صوت بكائها ارادوا الهجوم عليه بما امكنهم لانه قفل الباب من داخل واستمرّ كذلك الى ان سلخها وحشى جلدها بالتبوب وخرج يظهر لهم استادیته في السلخ وان الجلّادين يعجزون عن كماله في صنعته ومنها انه مرّ وهو في موكبه بدكّان حلوانيّ يبيع الحلاوة وبسطته قدامه فاقامه من دكّانه وجلس مكانه يبيع الحلاوة ودار حوله امراؤه يشترون منه الحلاوة واخذ بيده الميزان وصار يزن لهم الحلاوة الى ان حيرت وكذلك دكّان الاقمشة والدّمس وغيرها وكانت له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكي الى ان سقط من اعين العسكر وسطوا عليه كما سطى بالحسام الابتر وسلخوه من الملك كما سلخ تلك الصعيفة بالخنجر ومزّقوه كل ممزّق ولعذاب الاخرة اكبر فمن غروره انه خرج متخفّيًا منفردًا عن عبيده وخدمه متباعدًا عن خوله وحشمه فتوجّه بمشى وحده الى برّ الجيزة فاكمن له عشرة انفس من مماليك ابيه في خيمة على ممرّه فلمّا وصل اليهم وكان وحده منفردًا خرجوا عليه من الخيمة ومسكوا بلجام فرسه وضربوه بالسيوف الى ان قطعوه وجاءوا به مقتولاً الى القاهرة ودفنوه في تربة ابيه في سنة ٩٠٤ه

ثم ولوا بعده خاله الملك الظاهر ابا سعيد قانصوه وهو خال الناصر محمد بن قايتباى كان سادجًا امّيًا لا يعرف الا بلسان الجركس قريب العهد ببلده لان السلطان قايتباى جلبه من بلاده وهو كبير وخطّه الشيب وصار يرقبه بواسطة زوجته خَوَنْد امّ الناصر لانه اخوها وهى التى اقامته مقام ولدها الناصر وبذلت له الاموال والخزاين وارادت تقويته واقامته واصلاحه ولن يُصلح العَطّار ما افسد الدهر فما استكمل الجند للايالة وما اهّلوه للسلطنة وكيف له بها وأنّى له فخلعوه بعد ان ساسهم سنة وسبعة اشهر واخرجوه من الملك فى اواخر سنة ٩٠٥ وولّوا بعده السلطنة الامير الكبير جان بلاط وتلقّب بالملك الاشرف جانبلاط فى اوايل سنة ٩٠٦ ولا تَهَنّأ بالسلطنة ولا وافقه احد عليها وخلع بعد ستة اشهر وتولى مكانه الملك العادل طومان باى وما استكمل يومًا واحدًا بل هاجم عليه العسكر وقتلوه فما قدم احد على السلطنة وكانت الامراء متوفّرة وكلهم يشير بعضهم الى بعض فى الجلوس على تخت الملك فاتّفقوا على ان يولوا قانصوه الغورى لانهم راوه لسّن العريكة سهل الازالة اى وقت ارادوا ازالته ازالوه لانه كان اقلّهم مالاً واضعفهم حالاً واوهنهم قوّة فاشاروا عليه ان يتقدّم فأبى فالزموه بذلك فقبل اقبل ذلك منكم بشرط ان لا تقتلونى فاذا اردتم خلعى من السلطنة اخبرونى بما تريدونه وانا اوافقكم على ذلك واترك لكم الملك وامضى حيث اريد فعاهدوه على ذلك فقبل منهم وولوه السلطنة ولقّبوه الملك الاشرف ابا النصر قانصوه الغورى فى سنة ٩٠٦ وفرح العسكر بولايته لانهم سَئِمُوا تعدّد السلاطين وسُرعة تقضّى ملكهم بل فرح العامّة وامنوا على انفسهم واموالهم فى الجملة، وكان قانصوه الغورى

كثير الدهاء ذا راى وفطنة وتيقّظ الا انه كان شديد الطمع كثير الظّلم والعسف بخيلًا محبًّا للعمارة ومن جملة عماراته الجامع والتربة بالقرب من بين القصرَيْن بمصر وكان فى نيّته ان يُدْفَن بها ووقف عليها اوقافًا كثيرة وما قُدّر له دفنه فيها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عُرف وما تدرى نفسٌ باىّ ارض تموت وله آثار جميلة فى طريق الحجّ فى عقبة ايلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها وكان يحفظ حُرمته على الامراء بالدربة والتنزّل معهم من غير تشديد عليهم ولا اظهار عظمة او امر او نهى وذلك فى ابتداء امره الى ان تمكّن من قوّته وباسه حكى شيخنا الشيخ شهاب الدين احمد بن موسى بن عبد الغفّار المغربى الاصل ثم المصرى نزيل الحرمَيْن وهو الطف من اخذنا عنه رحمه الله عن والده وكان من المباشرين ارباب الاقلام فى ديوان السلطان قانصوه الغورى رحمه الله قال استشمّ الغورى مبادى فتنة ارادوا الامراء احداثها وارادوا ان يجعلوها مقدّمة لخلعه من السلطنة فلمّا استشعر الغورى ذلك منهم عمل ديوانًا جمع فيه الامراء والمقدمين وامرهم بالجلوس وجلس بينهم كاحدهم وكانت عادة الامراء الوقوف بين يدى السلطان ولا يجلسون معه الا على السماط فى الاكل فقطّ فلمّا اجلسهم وجلس بينهم استنكروا ذلك منه وصاروا يفتقدون عن سبب ذلك وكلٌّ مُصْغٍ الى ما يقول متوجّه الى السلطان غاية التوجّه فقال لهم يا اخوات انما جمعتكم لأسألكم سؤالًا خطر ببالى واطلب منكم جوابه على الوجه الذى تزونه صوابًا فقالوا نعم فقال اسالكم عن جماعة جاءوا الى رجل وناولوه صُرّة من الدراهم مربوطة مختومة واودعوها عنده فقال لهم انا استودع منكم هذه الوديعة بشرط ان تاتونى وتطلبوا وديعتكم منّى بلا نزاع معى ولا

خصومة فاردّ وديعتكم اليكم فقالوا له نعم قبلنا منك هذا الشرط وأودعوه ومضوا ثم عادوا اليه بعد مدّة وقالوا له نريد الوديعة بنزاع شديدة وخصومة ومضاربة فقال لهم هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع وضرر معي كما اشترطت عليكم فقالوا لا بل لا بُدّ لنا معك من الخصام والنزاع فايّهم على الباطل وايّهم على الحقّ ففهموا مُراده واستعفوا منه فقال لهم انا ما جلست معكم الا لتعلموا اني كاحدكم لا امتاز عنكم بشيء وهذه السلطنة اسلّمها لايّكم اراد ولا انازع فيها ولا اخاصمكم عليها وانما انا والله من الجند، فقبّل كلٌّ منهم يده واذعنوا له بالسلطنة وسالوه في استمراره سلطانًا عليهم وسكنت الفتنة بهذا التدبير وغفلوا عنه مدّة واشتغلوا عنه بصرورات أُخْرى وطال معه الحبل الى ان صار ياخذهم واحدًا بعد واحد ويتغافل ثم يجعل حيلة أُخْرى وعلّة اخرى لاخذهم فياخذهم بها ويوقع بين الاثنين وياخذ هذا بذاك وذاك بذا ويدسّس لهم الدسايس من الطعام السمّ ونحوه حتى افنى قرانستهم ودُهاتهم الا قليلًا منهم واتّخذ مماليك لنفسه جُددًا، واستجلب جُلْبانًا وأَعَدّ عَدَدًا وعُدَدًا، فصاروا يظلمون الناس ظُلْمًا، ويعاملون لخلق عسفًا وغشمًا، وصار يغضي عنهم ويتغاضى لهم فاظهروا الفساد، واهلكوا العباد، واكثروا العناد، وطغوا في البلاد، وصار هو يصادر الناس، ياخذ اموالهم بالقهر والباس، وكثرت العوانية في ايامه لكثرة ما يصغي اليهم وصاروا اذا شاهدوا احدًا توسّع في دنياه، او اظهر التجمّل في ملبسه او مثواه، دَسّوا به الى السلطان، فيرسل اليه الاعوان، ويطالبه بالقرض ويستصفي امواله، ويسلّمه الى الصوباشي لياخذ ماله، ويهتك اهله وعياله، ويعذبه بانواع الاسكنجه الى

ان يصير فقيرًا بعد غناه، ومُعْدِمًا بعد ثَرْوَته واستغناه، وجمع من هذا الباب اموالًا عظيمة، وخزاين واسعة جسيمة، ذهبت فى آخر الامر سُدًى، وتفرّقت بيد العِدَا، وتمزّقت بَدَدًا، وهكذا كلّ مال يوخذ على هذا الاسلوب، ويُجْمَع على هذا الطريق المذكوب، لا ينفسع مَنْ جمعه، بل يضرّ صاحبه ويهلك معه، وهيهات ان ينفع مال حصل بأذين كلّ حزين، وسُلب بالقهر والعُسر من كلّ مظلوم مسكين، وكيف ينفع سالبه، ولا نفع صاحبه، وكيف ينتهنّى به من انتسبَهُ على هذا الوجه وابكى كاسبَهُ،

الا ان مالًا كان من غير حِلّه سيخرب يومًا اهله واقاربه،

واما الميراث فبطل فى ايّامه وصار اذا مات احد يوخذ ماله جميعه للسلطنة ويترك اولاده فقراء الا ان اعتنا به اعتناء كبيرًا، جعل له نزرًا يسيرًا، من مال ابيه، واخذ لنفسه باقيه، واشتدّ طمعه، وكثر ظلمه، فى آخر ايّامه، فاستجاب الله فيه دُعآء المظلومين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين، حكى لى والدى رحمه الله تعالى عن شخص كان مجاب الدعوة من اولياء الله تعالى انه راى بمصر فى آخر ايام السلطان الغورى جنديًّا من الجراكسة للمليان اخذ متاعًا من دلّال ولم يُرْضه فى قيمته فتبعه الدلّالُ يطلب حقّه منه وهو يمتنع فقال له الدلال بيني وبينك شرع الله تعالى فضربه بالدَّبُّوس فشجّ راسه وقال هذا شرع الله وسقط الدلال مغشيًّا عليه ومضى الجندىُّ بالمتاع وما قدر احدٌ من المسلمين على منعه ممّا فعل قال الرجل فصَعُبَ علىّ مشاهدة هذا الحال فرفعتُ يدى الى الله تعالى ودعوت على الجندى المزبور وعلى سلطانه وعلى الظلمة من اعوانه فصادف ساعة الاجابة وبتّ تلك الليلة على

طهارة وانا مفكّر فى امرهم واحدّث نفسى بذلك واقول كيف يزول مُلك هذا السلطان العظيم وقد ملأتْ جنوده الارض وأتى للمسلمين بسلطان آخر يرفق بالرعايا وتطمئنّ فى دولته البرايا فاخذنى النوم فرايت فيما يرى النائم ملايكة نزلت من السماء وبايديهم مكانس وهم يكنسون الجراكسة من ارض مصر ويلقونهم فى بحر النيل فاستيقظت من النوم واذا بقارئ يَتْلُو القران فانصتُّ له فاذا هو يقرا قوله تعالى فانتقمنا منهم فاغرقناهم فى اليم بانهم كذبوا بايانتا وكانوا عنها غافلين، فعلمت ان الله تعالى ياخذهم اخذًا وبيلًا فما مضى قليل الا وبرز الغورىّ بجنوده واموالة وخزاينه من مصر لقتال المرحوم المغفور له السلطان سليم خان الى حلب فجاءه الخبر بعد قليل بانه انكسر وقُتل اكثر جنوده وفُقد تحت سنابك الخيل فى مرج دابق وهرب بقية الجيوش من الجراكسة الى مصر وصيّروا الدوادار طُومان باى سلطانًا والسلطان سليم فى اثرهم يفتتح البلاد ويضبطها الى ان وصل الى الريدانيّة خارج مصر فخرج طومان باى ومن معه الى قتاله فما كمل هو ومن معه ساعة الا وانكسروا ودخل السلطان سليم خان الى مصر وضرب وطاقه فى الجزيرة الخضراء على ساحل النيل وهرب طومان باى الى البرّ ومسكه شيخ عرب وجاء به الى وطاق السلطان سليم فامر بصلبه فى باب زُوَيْلة ليَرَاه الناس ويصدّقون بقتله فان الناس صاروا لا يصدّقون بانه مُسِكَ وصاروا يزعمون بانه اختفى لتَحْصُلَ له فرصة فيخرج وكثر كلام الناس وصار مظنّة الفساد وكثرة القيل والقال فامر السلطان سليم بصلبه تسكينًا للفتنة، وكان صلبُه فى باب زويلة فى حادى عشر ربيع الاول سنة ٩٢٣ وبصلبه انقطعت دولة الجراكسة كما انقطعت دولة من قبلهم من ارباب الدول من الاتراك

والاكراد والعُبَيْدِيّين من الدول وهكذا شان الدنيا فى ابنائها تتقلّب بهم وتتحوّل عنهم اىّ تقلّب واىّ تحوّل كما قيل

ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء فى فَلَك
الّا لِنَقْلِ السلطان من ملك قد زال سلطانه الى ملك
وملك ذى العرش دايم ابدًا ليس بفانٍ ولا بمشترك ،

وملوك الجراكسة اثنان وعشرون ملكًا اولهم السلطان الملك الظاهر برقوق وآخرهم طومان باى ومدّة ملكهم ماية وثمانية واربعون عامًا وليس لطومان باى اثر لقصر ايام سلطنته ، وللاشرف قانصوه مآثر جميلة وعمايِر حسنة جليلة رحمه الله وسامحه ، فممّا عمّره السلطان قانصوه الغورى بمكة المشرفة باب ابراهيم بعقد كبير جعل عُلْوَّه قصرًا وفى جانبَيْه مَسْكنين لطيفين وبيوتًا معدّة للكرا حول باب ابراهيم وقف الجميع على جهات الخير ولا يصحّ وقف ذلك القصر لانه فى هَواء المسجد وكذلك المسكنان لان اكثرهما واقع فى ارض المسجد الحرام وما امكن العلماء ان ينكروا ذلك فى ايام سلطنته ودولته لعَدَم اصغاءه الى كلام اهل الشرع والدين ، وعدم اقدام العلماء على الملوك والسلاطين ، للطمع فى الدنيا الدنيّة ، وللخوف على مناصبهم الاعتباريّة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وبنى ايضًا ميضأةً خارج باب ابراهيم عن يمين الخارج من المسجد هى بطّالة الآن لان روايح عفونتها قد تَصِل الى المسجد فيتأذّى بها المصلّون فابطل وغلق قريبًا فى سنة ٩٠٨ بالامر الشريف السلطانى ، ومن آثار الاشرف الغورى ايضًا الترخيم الواقع فى حجر البيت الشريف عُمل بامره فى ايامه واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمله سنة ٩١٧ ، ومن آثاره بنساء سور جُدّة فانهما كانتا غير

مسوّرة وكانت العُربان فى ايام الفتنة تهجم على جُدّة وتنهبها واسرَت عربانُ زُبَيْد فى ايام الفتن الخواجا محمّدًا القارى وكان من اعيان التجار من اهل الاعتبار، فهجموا على بيته وانزلوه من السطح واركبوه معهم على ظهر فرس ارتدفه واحد من زبيد واخذوه الى اماكنهم وهى قرب عقبة السويق من درب المدينة الشريفة ومكث عندهم ايامًا الى ان اشترى نفسه منهم بثلاثين الف ذهب فردّوه الى مكة بعد ان استوفوا هذا القدر منه، ونُهِبَتْ جُدّةُ مرارًا فى الفتن تلك وقعت بارض الحجاز بعد وفاة المرحوم المقدس الشريف محمد بن بركات بين اولاده وجرت احوال يطول تفسيرها، فارسل السلطان الغورى احد امرآه المقدّمين وهو الامير حسين الكُرْدى وجهّز معه عسكرا من الترك المغاربة واللَّوَنْد فى نحو خمسين غرابًا لدفع ضرر الفرنْجة فى بحر الهند وكان مبادى ظهورهم وامره بدفع الفتن الواقعة اذ ذاك فى جُدّة وجعلها له اقطاعًا فلمّا وصل الامير حسين الكردى الى جدّة بنى عليها سورًا فى سنة ٩١٧ وهو الباقى الى الآن، وكان ظلومًا غشومًا يسفك الدماء، ولا يرحم من فى الارض ليرحمه من فى السماء، فاذا ضمّ أُوطاقه بمكان فى سفر او حضر، رتّب حوله اعوانه وجنوده ترتيبًا خاصًّا لارهاب من حضر، ونصب اعوادًا للصَّلْب والشَّنْق والشنكلة، واقام جلّادين للقتل والتوسيط والضرب والبَهْدلة، فاىّ مسكين وقع فى يده قتله بأدنى سبب، او عذبه بالمقارع او صلب، اظهارًا للناموس الفرعونى المهيب، واخافة للخلق بالسياسة والترهيب، كما يُحْكى ان الحجّاج دخل بلدة فصادف انسانًا عند دخوله فسكه وامر بضربه فقال له اىّ ذنب لى تضربنى بسببه فقال له لا ذنب لك ولكنّى اريد ارهاب اهل البلاد فحملنى

بنفسك ساعة فضربه خمسمائة سوط فمر الطلقه، وكانت للامير حسين المذكور اسعفة محمودة في سايير الايام، وكان اكيلاً بَذُولاً للطعام، سمحًا في المواكلة والاطعام، يستوفي الحروف وحده مع ارغفة عدّة، وقفايس له معدّة، وكان كرديًّا دخيلاً في طايفة الجراكسة لا يملا اعينهم ولا يعتبرونه فيما بينهم فاراد السلطان الغوري ابعاده عنهم حماية له منهم وكان معتنيًا به فاعطاه بندر جُدّة على وجه التيمار له وجهّز معه عمارة ليقاتل الافرنج الذين ظهروا في بنادر ارض الهند واستطرقوا اليها من بحر الظلمات من وراء جبل القمر لله منبع ماء النيل وعاثوا في ارض الهند ووصل اذاهم وافسادهم الى جزيرة العرب وبنادر اليمن وقصد السلطان الغوري دفع اذاهم عن المسلمين بارسال الامير حسين الكردي الى جُدّة فلمّا اتى الى جدة سوّرها، وبنى ابراجها واحكمها، وهدم كثيرًا من بيوت الناس، ممّا يقارب موضع السور ليوضع الاساس، واخذ حجارتها وبنى بها السور في شدّة باس، واستخدم عامّة الناس، في حمل الحجر والطين، حتى النجار المعتبرين، وساير المتسبّبين، وضيّق على البنّائين، بحيث يحكى ان احدهم تأخّر قليلاً عن المجيء فلمّا جاء امر ان يُبنى عليه فبُني عليه واستمرّ قبره جوف البناء، الى يوم الجزاء، الى غير ذلك من الظلم الشديد، والجور العنيد، وبنى السور جميعه في دون عام من شدّته وغشمه، واقدامه وظلمه، واستمرّ حاكمًا بجُدّة الى ان تقوّى بالمال وتمثّل وجمع خزاين من كل صنف فتوجّه الى الهند في حدود سنة ٩٢١ ودخل واجتمع بسلطان كجرات يومئذ وهو المرحوم المغفور له السلطان خليل شاه مظفّر بن السلطان محمود شاه الكجراتي فاكرمه وعظّمه وانعم عليه بنعمة طايلة جزيلة فلمّا سمع الافرنج به ارتفعوا عن

بنادر كجرات الى بنادر الدكن وتحصّنوا بقلعة متقنة محكمة لهم هناك في تحت ملكهم الى الآن يقال لهما كُوه بالكاف المعجمة المضمومة والواو المشددة المفتوحة بعدها هاء ساكنة بسّر الله تعالى فتحها لسلطان الاسلام، وقطع بسيفه دابر الافرنج اللئام، وكافّة عباد الصليب والاصنام، ولقد احسن من قال

اعبّاد المسيح بخلف صدري ... ونحن عبيدُ مَنْ خلق المسيحا

ولم يستقرّ الامير حسين في كجرات بل عاد الى اليمن وافتتح في طريقه على عوده مملكة اليمن من بني طاهر ملوك اليمن ظُلْمًا وعدوانًا في سنة ١٢ بعد امور يطول شرحها وترك بها نايبًا له في زبيد اسمه بوسبساي جركسي من مماليكه وقتل السلطان عامر بن عبد الوهّاب مع اخيه عبد الملك بن عبد الوهاب وكانوا ملوكًا من اهل السُّنّة والجماعة طاهريين في الاعتقاد، طاهريين على اهل البدع والالحاد، رحمهم الله تعالى وانقرضت به دولة بني طاهر من اليمن، وعاد الامير حسين لمنيّته وحتفه، كالباحث عنها بظلفه، وقدم الى مكة وكانت دولة الجراكسة قد انقرضت بمصر وملكها السلطان الاعظم السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن محمّد خان، رحمه الله تعالى واسكنه فسيح الجنان، وسقى عهده صوب الرضا والغفران، فتوجّه سيّدنا ومولانا المقام الشريف العالي سيّد السادات الاشراف، وتاج رؤس الشرفاء من بني عبد مناف، مولانا السيد الشريف جمال الدنيا والدين محمد ابو نمي بن بركات خلّد الله تعالى سعادته، وابّد عزّه وسيادته، ارسله والده الشريف بركات ليهنوس البساط السلطاني بمصر وعمره يومئذ اثنا عشر عامًا فحصل له بذلك غاية التعظيم والاكرام، وبلغ بذلك جميع ما طلبه ورام، وعاد الى والده

الشريف معزّزًا مكرّمًا ومعه احكام شريفة بكل ما طلبه وارادهُ، وارسل حكم مع السيّد عرار بن عجل الى السيد الشريف بركات رحمه الله بقتل الامير حسين الكردى المذكور وهو الذى استخرج هذا الحكم لعداوة سابقة بينه وبين الامير حسين المذكور فأُخذ مقيّدًا الى جُدّة وربط فى رجله حجر كبير وغُرّق فى بحر جدّة فى موضع يقال له امّ السمك فاكلته الاسماك، بعد ان كان يُعَدُّ من الاملاك، وكان طعامًا للحيتان، بعد اطعامه الضيفان، وغرق مقيّدًا بالاصفاد، بعد ان قتل ما شاء الله من العباد، وتفرّق فى البلاد جنوده واعوانه بددًا، ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربُّك أحدًا ۞

الباب السابع

فى ظهور ملوك آل عثمان * خلّد الله تعالى سلطنتهم القاهرة الى اخر الزمان *

وذكر نبذة من مناقب اسلافهم السلاطين العظام *

وذكر ما عمّروه فى بلد الله الحرام * وفعلوا فيه من الخيرات الحسان *

وذكر بناء المسجد الحرام * على الوضع الذى هو عليه الآن * وفيه فصول

الفصل الاول فى ذكر الفتح الخاقانى، ودخول ممالك العرب والعجم فى سلك الملك العثمانى، ونبذة من ذكر اسلافهم الكبار، بطريق الاختصار، خلّد الله ملكهم مَدَى الزمان، وابقى مُلك الارض فيهم وفى عقبهم الى انتهاء الدَّوران، لمّا اراد الله تعالى باهل الارض احسانًا وافضالاً، وقدّر ظهور العدل والفضل فيهم اكرامًا لهم واجلالاً، وقضى باطفاء نيران الظُّلم والفتن، ورفع موادّ الفساد والمحن، وتأييد دين الاسلام، وتقوية اهل السُّنّة السنية المتمسّكين بسُنَنِ سَنَنِ محمّد عليه افضل الصلوة والسلام، واقامة الشرع الشريف على رغم الملاحدة اللئام، اطلع فى افق الخلافة